﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا
وَاتَّقُوا اللَّـهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

سورة **آل عمران** الآية ٢٠٠

الـكـتـاب: بحث حول الصبر
«گفتاری در باب صبر»
تأليف ونشر: مؤسسة الثورة الإسلامية للثقافة والأبحاث
(مكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي)
تـوزيـع: دار المودة للترجمة والتحقيق والنشر
إخراج فني: ماجد مصطفى
طـبـاعـة: DB UK
info@dboukart.com

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة: الأولى، 2024م
ISBN: 978-622-7491-17-3

مكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي

طهران، شارع جمهوري إسلامي، شارع فلسطين، زقاق هلالي، رقم ٢٦

يُطلب من دار المودة للترجمة والتحقيق والنشر على الأرقام التالية:
00961 70 724 300 - 00961 1 270 664

@arirpubl
(ARabic. Islamic Revolution PUBLications)

بحث حول الصبر

السيد عليّ الخامنئي

الفهرس

7 مقدّمة المُترجم

11 المقدمة

20 الفهم العامّيُّ للصبر

22 نظرةٌ عامّة على أدلّة «الصّبر»

24 المفهوم الإجماليّ للصبر

27 أهمّيّة الصّبر في الروايات

28 الحديث الأوّل

30 فما هي هذه الوصيّة المهمّة جدّاً، والقيّمة؟

32 الحديث الثاني

34 موقعيّة الصّبر ضمن منظومة القوانين الإسلاميّة

41 ميادينُ الصّبر

43 أقسامُ الصّبر

45 ا. الصّبر على أداء التكاليف (الطاعة)

51 الصّبر على الطاعة في حياة الأئمّة عليهم السلام

نظرةٌ إلى القرآن 52

2. الصّبر عن المعصية 54

أهمّيّة الصّبر عن المعصية 57

نموذجٌ من التاريخ 59

نماذج أُخرى 63

نظرةٌ إلى الروايات 65

3. الصّبر في مواجهة الحوادث الشديدة (الصّبرُ عند المصيبة) 72

الصّبر عند المصائب الاختياريّة 77

طُرقُ تحصيل هذا الفرع من الصّبر 84

آثار وفوائد الصّبر 88

أ) الثبات والانتصار: 90

[جوابٌ عن شبهةٍ] 91

ب) الآثار الفرديّة والنفسيّة للصّبر: 96

1. بروز روحيّة رفض الهزيمة 97

2. بروز الخصال الحسنة الكامنة 101

3. التوجّه والاعتماد على الله تبارك وتعالى أكثر 102

مكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي
غير مخصص للبيع أو الطباعة

مقدّمة المُترجم

أمّا بعد ...

يُلاحظ القارئ لكتب الإمام الخامنئيّ دام ظله وكلماته، أو المستمع لخطاباته ومحاضراته، سعيه الدائم - قديماً وحديثاً - لتصحيح وإحياء المفاهيم الأصيلة، ونحت المصطلحات عامّةً والشرعيّة منها خاصّةً؛ لتكون موافقةً لأسس ومباني المنظومة الفكريّة والعقائديّة والدينيّة التي جاء بها الإسلام المحمّديّ الأصيل، ومتوائمةً بل معبّرةً بشكل صحيح وسليم عن رؤيته الكونيّة وأيديولوجيّته ومنظومته العمليّة.

ويُدرك من سبر أغوار كتب الإمام القائد دام ظله التفسيريّة، والعقائديّة، والتاريخيّة التحليليّة، وحتّى الأخلاقيّة والاجتماعيّة أنَّهُ دام ظله كثيراً ما قارب موضوعاتها المختلفة بحثاً ودراسةً وتحليلاً بمنحى إرشاديٍّ وتربويٍّ واجتماعيٍّ، مستفيداً منها الدروس والعبر، ومؤسّساً ومشيّداً عليها بناءه الفكريّ ومنظومته الفكريّة لبناء المستقبل والحضارة الإسلاميّة الحديثة ضمن مشروع تصحيحيّ إحيائيّ.

وحتّى لا تبقى هذه القراءة وهذا الاستنتاج دعوى من دون دليل، عمدتُ إلى مجموعةٍ من كتب الإمام الخامنئيّ دام ظله وكلماته وخطاباته؛ لأستخرج منها مجموعةً من المفاهيم والمصطلحات التي عمل سماحتُهُ دام ظله على تحديدها وتصحيحها وتبيينها؛ لأقدّمها للقارئ العزيز نماذج على هذا المنهج الفكريّ والعلميّ الذي لطالما اعتمده دام ظله ويعتمده في بناء مشروعه الإسلاميّ الحضاريّ وتشييده.

إلّا أنَّني ومع دخولي هذا الميدان الشاسع والواسع، أذهلني العدد

الهائل من الأمثلة والمصاديق والمفاهيم والمصطلحات المرتبطة بأسس الرؤية الكونيّة الإسلاميّة والدين المبين والإيمان والعقيدة والمندرجة تحت دائرة الأيديولوجيا والمنظومة العمليّة والتوصيات الإسلاميّة، والتي تصلح لأن تكون شاهداً ودليلاً على هذا النوع من العمل التأصيليّ والتأسيسيّ والبنيويّ والإحيائيّ والتصحيحيّ لجملةٍ من المفاهيم والمصطلحات الدخيلة في صياغة المنظومة الفكريّة والعمليّة الإسلاميّة. هذا، مع كون ما قمت به لا يعدو كونه مجرّد استقراءٍ ناقصٍ لم يتّسع ليشمل جميع كتبه دام ظله وخطاباته وكلماته.

ما ستقرأه - عزيزي القارئ - في هذا الكتاب هو حلقةٌ من حلقات هذا المسلسل الإحيائيّ التصحيحيّ الذي انتهجه دام ظله منهجاً له في ميدان عمله الفكريّ والتبليغيّ والتبيينيّ.

في هذا الكتاب، يتعرّض دام ظله إلى تصحيح مفهوم «**الصّبر**»، وإزالة المفهوم الخاطئ الذي علق في الأذهان حول هذه الصفة المهمّة، وإعادة تعريفه بما يتناسب مع مفاهيم منظومة الفكر الإسلاميّ الثوريّ الأصيل.

هذا ما سنطّلع عليه معاً من خلال هذه الصفحات المفعمة بعبق وأريج عزيز قلوبنا الإمام الخامنئيّ العزيز دام ظله، وأنفاسه القدسيّة.

ومن الله التوفيق ...

قم المقدّسة
السبت 13 رجب الأصبّ 1444هـ ق
الموافق لـ 4 شباط 2023 م
ذكرى مولد سيّد الأوصياء ومولى الموحّدين
الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]

مكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي
غير مخصص للبيع أو الطباعة

(1) سورة «البقرة» المباركة: الآية: 153.

المقدمة

في أوائل سبعينيّات القرن الماضي، اتّخذ آية الله العظمى الإمام الخامنئيّ دام ظله مسجدَ «الكرامة» في مدينة «مشهد المقدّسة» مقرّاً لفعاليّاته الدينيّة والثوريّة. وكان دام ظله يبيّن في تلك الليالي وبعد إقامة صلاة الجماعة المعارف الإسلاميّة من خلال شرحٍ للآيات والروايات التي كان ينتخبها ويختارها.

من جملة ذلك، شرحه دام ظله في شتاء سنة 1973 م الموافق لأواخر سنة 1393 - 1394 هـ / ق حديثَ مكارم الأخلاق، الذي تضمّن عشراً من خصائص الأنبياء عليهم السلام.

وأثناء تبيينه هذه الخصائص والصفات، أبرز دام ظله اهتماماً خاصّاً بإزالة المفاهيم الخاطئة حول هذه المعارف الأساسيّة من أذهان مخاطبيه الذين كان أكثرهم من جيل الشباب.

وكأنَّ إعادة تعريف هذه الصفات بنهجٍ ثوريّ - والذي تستبطنه هذه المفاهيم - كان يضعُ الشباب الثوريّ في طريق النضال الإسلاميّ بشكل أعمق وأكثر رسوخاً.

إحدى هذه الصفات التي بُيّنت في متن الرواية الشريفة بوصفها الصفة الثالثة، هي «**الصّبر**».

ومفهوم «**الصّبر**»، من المفاهيم التي أُسيء فهمها. وفي بداية هذا البحث، بيّن سماحةُ الإمام الخامنئيّ دام ظله وبشجاعةٍ - إشارةً وكنايةً طبعاً - أنَّ المجتمع - آنذاك - كان تحت سُلطة الظَلَمَةِ. وأنَّ الفهم المغلوط لمفهوم «**الصّبر**»، أدّى إلى الجمود وعدم التحرّك في وجه ظُلمهم؛ ممّا أتاح المجالَ أكثر أمامهم.

قال دام ظله: «**عندما يُطلَبُ من شعبٍ يعاني الفقرَ والتخلّف، شعبٍ غائصٍ في الفوضى والضياع والارتباك، أو من شعبٍ مظلومٍ بسبب زمرةٍ من الظالمين عديمي الشرف والإنسانيّة، أو من مجتمعٍ يواجه الفساد الأخلاقيّ والفقر على مستوى السجايا الإنسانيّة، أو من أيّ فردٍ أو جماعةٍ غارقةٍ في مستنقع البؤس والشقاوة والتعاسة، أن يصبروا، ويُقال لهم: «اصبروا»! فإنَّ أوّل نتيجةٍ تُستنتج من هذه الموعظة أنَّه بالإمكان تحمّل تجرّع كأس الظروف المقابلة المُرّة والمُهلكة. ولن يتقاعسوا فقط عن تغيير الأوضاع والعمل على نجاة وخلاص أنفسهم، بل سيرضون عن وضعهم ويفرحون به مشيرين إلى الثواب الموهوم على اللامبالاة والتقاعس، ويظنّون ذلك فوزاً عظيماً. ومن الواضح أنّ شيوع ورواج مثل هذه الروحيّة في مثل هكذا مجتمع، إلى أيّ حدٍّ سيعود بالنفع على الطبقات الظالمة والنفعيّة والانتهازيّة، ليبقى الضررُ نصيبَ الطبقات المضطهدة والمظلومة**»[1].

ويعتبر سماحتُهُ دام ظله أنَّ مثلَ هذا الفهم لـ «**الصّبر**»، مخالفٌ للمعارف القرآنيّة والروائيّة الواردة في هذا المجال، والّتي يتحوّل «**الصّبرُ**» - بحسبها - «**إلى رافعة حديديّة تقلب وترفع أثقل الموانع وأكبر**

(1) راجع: الصفحة (90) من هذا الكتاب.

المشكلات بسهولةٍ ويُسر، وتزيلها محقّقةً نتائج إيجابيّة مائة بالمائة. وحينها سيكون بالنسبة للمجتمع البائس مفتاحاً لكلّ أبواب السعادات والخيرات»[1].

ولهذا يُعرِّفُ دَامَظِلُّهُ «**الصّبر**» - وهو أحد الفضائل الأخلاقيّة - بأنَّهُ: «**مقاومة السالك لطريق التكامل في مقابل الدوافع الباعثة على الشرّ والفساد والانحطاط**»[2].

ويشرح سماحتُهُ دَامَظِلُّهُ هذا التعريف من خلال الاستفادة من مثال مُتسلّق الجبال، الذي يسير على طريق الكمال؛ بهدف الوصول إلى القمّة[3].

ومن النقاط الأخرى المثيرة للاهتمام في هذا الكتاب، التعريضات الصريحة بالشاه البهلويّ الظالم سفّاك الدماء، وذلك في حقبة اضطرابات السبعينيّات، ومطالبة المخاطبين والمستمعين ببيان مفاسد ذلك الجهاز الحاكم الظالم.

قال الإمام الخامنئيّ دَامَظِلُّهُ: «**يجب الصّبر، يعني أن لا نسمح للخوف من بريق نظرات الظالم الحادّة والغاضبة، والذي جرّ فسادُهُ وطغيانُهُ الأمّةَ إلى الفساد والانحطاط، أن يتسلّل إلى القلوب. بل لا بدّ من جعل الاستياء والغضب والاعتراض عليه أمراً لازماً وضروريّاً عند الجميع، وأن يكون إلقاءُ سطل فضائحه من على سطح عالٍ، وظيفةً إنسانيّة**»[4].

وخلال شرحه دَامَظِلُّهُ لأقسام «**الصّبر**» الثلاثة، أي: 1. الصّبر على

(1) راجع: الصفحة (22) من هذا الكتاب.
(2) راجع: الصفحة (24) من هذا الكتاب.
(3) راجع: الصفحة (24) من هذا الكتاب.
(4) راجع: الصفحة (50) من هذا الكتاب.

أداء الواجبات، 2. الصّبر عن المعصية، 3. والصّبر عند المصيبة، يؤكّد - استناداً إلى المعارف الدينيّة والشواهد التاريخيّة - على أهمّيّةٍ أكبر للقسم الثاني.

كما يُقَسِّمُ دام ظله القسمَ الثالث - أي: الصّبر عند المصيبة - إلى نوعين: الصّبر في مواجهة المصائب الاختياريّة والصّبر في مواجهة المصائب غير الاختياريّة. ويشرح «المصائبَ الاختياريّة» بأنَّها: مشكلاتٌ تحصل بسبب اختيار الشّخص، وسيره في مسير النضال والمواجهة، والتحرّك في طريق الأنبياء عليهم السلام.

ويُكمِلُ دام ظله هذا القِسْمَ ليختتمه بالتعريض بأولئك الأفراد طالبي العافية، المنزوين والمُتنحّين الذين يتركون النضال جانباً، وببيان سبيل تقوية هذا النّوع من الصّبر في مقابل المصيبة.

ويختصّ القسمُ الأخيرُ من الكتاب، بذكر الآثار والفوائد الدنيويّة للصّبر والتي تقوّي من خلال ذكر الأمثلة التاريخيّة الدافعَ الضروريّ عند المُخاطَب لأجل تحمّل المشكلات والصعوبات.

يشتملُ كتاب «بحثٌ حول الصّبر» على خمس جلسات عُقدت في «**مسجد الكرامة**» في «**مشهد المقدّسة**»، والتي كانت قد بدأت بحسب تقارير «السافاك» بتاريخ: 1352/11/2 هجريّة - شمسيّة، الموافق لـ 1974/1/22 ميلاديّة.

وفي سنة 1354 هجريّة - شمسيّة، الموافق لـ 1974 ميلاديّة، وبعد إعادة الإمام الخامنئيّ دام ظله تحرير المتن المقرّر لهذه المُحاضرات وترتيبه من جديد، طُبع بواسطة «دار الغدير للنشر» بدعمٍ ماليٍّ من المجاهد السيّد حسين نيّريّ الطهرانيّ رحمه الله. وبعد

انتصار الثورة الإسلاميّة المظفّرة، نُشر هذا الكتاب عدّة مرّات بواسطة «مكتب الثقافة الإسلاميّة للنشر».

وقد جاء في مقدّمة الطبعة الأولى، أنَّ المؤلّف دام ظله كان عازماً على تحرير هذه المفاهيم الواردة في هذه السلسلة من المحاضرات وبعض المفاهيم الأخرى لتُطبع على شكل كُتب يسهل الوصول إليها، إلّا أنَّ الأوضاع اللاحقة منعت من تحقّق هذا الأمر المهمّ.

وسوف تسعى «**مؤسّسة الثورة الإسلاميّة**» - إن شاء الله تعالى - بعد نشر هذا الكتاب والحصول على أشرطة التسجيل المتعلّقة بالجلسات المذكورة إلى إعداد مباحثها بشكلٍ مناسب ووضعها في متناول أيدي الراغبين والمهتمّين.

ومن الله التوفيق

مؤسّسة الثورة الإسلاميّة للثقافة والأبحاث
(مكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئيّ)

مكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي
غير مخصص للبيع أو الطباعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[1]

هذا البحث عبارةٌ عن خلاصةٍ وتنظيمٍ لعدّة خطاباتٍ قصيرةٍ أُلقيت وفقاً لرسمٍ وتقليدٍ خاصّ، وذلك بعد أداء صلاة الجماعة في «مسجد الكرامة»، بواسطة الأستاذ الباحث السّيّد عليّ الخامنئيّ.

(ذي الحجّة الحرام 1393 هـ / ق)

مكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي
غير مخصص للبيع أو الطباعة

(1) سورة «البقرة» المباركة، جزءٌ من الآية: (45).

«الصّبرُ» من أشهر الألفاظ والمصطلحات الإسلاميّة. وقد استعمل في النصوص الإسلاميّة في مناسبات متعدّدة، وفي موارد وميادين مختلفة، وذلك بمسوّغات عديدة ولفظٍ يناسب كلّ واحدٍ منها، وجرى الحديث عنه بطريقةٍ فيها تشويقٌ، أو ذكرٌ للثواب والثناء، أو بيانٌ للأهمّيّة، ومن الطبيعيّ أنَّ هذا يوقظُ عند كلّ إنسان مسلم الدّافعَ لمعرفة معنى هذ الصفة ومفهومها، والاتّصاف بها حدّ الإمكان.

وللأسف، فإنّ بلاءَ التحريف - وهو بلاءٌ أصاب عمومَ الألفاظ والمصطلحات الإسلاميّة أو أغلبها - لم يترك هذا اللفظ - الصّبر - دون أن يُذيقه نصيبه منه. ويمكن القول إنّ التحريف غيّره إلى حدّ المسخ، وقَلَبَ مفهومه ومفاده.

مركز حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي
غير مخصص للبيع أو الطباعة

الفهم العامّيُّ للصبر

عـادةً ما يفسّرون الصّبر بمعنى تحمّل المصاعب والمكاره. وهذا التفسير على هذا النحو يختلط أيضاً وإلى حدٍّ كبير بالإبهام والغـموض، ويجعله قابلاً للتوجيهات والتـأويلات المختلفة والمتضادّة، بحيث إذا ما طُرح في مجتمعٍ [مقهورٍ] يعيش الظلم، مسلوب الإرادة، وأسيرٍ لعوامل الفساد والانحطاط، سيكون أعظمَ أداةٍ بيد الظالمين والمفسدين، وأكبرَ عاملٍ ومحفّزٍ للتخلّف والانحطاط والفساد.

عندما يُطلَبُ من شعبٍ يعاني الفقرَ والتخلّف، شعبٍ غائصٍ في الفوضى والضياع والارتباك، أو من شعبٍ مظلومٍ بسبب زمرةٍ من الظالمين عديمي الشرف والإنسانيّة، أو من مجتمعٍ يواجه الفساد الأخلاقيّ والفقر على مستوى السجايا الإنسانيّة، أو من أيّ فردٍ أو جماعةٍ غارقةٍ في مستنقع البؤس والشقاوة والتعاسة، أن يصبروا، ويُقال لهم: «اصبروا»! فإنَّ أوّل نتيجةٍ تُستنتج من هذه الموعظة أنَّه بالإمكان تحمّل تجرّع كأس الظروف المقابلة المُرّة والمُهلكة. ولن يتقاعسوا فقط عن تغيير الأوضاع والعمل على نجاة وخلاص أنفسهم، بل سيرضون عن وضعهم ويفرحون به مشيرين إلى الثواب الموهوم على اللامبالاة والتقاعس، ويظنّون ذلك فوزاً عظيماً.

ومن الواضح أنّ شيوع ورواج مثل هذه الروحيّة في مثل هكذا مجتمع، إلى أيّ حدٍّ سيعود بالنفع على الطبقات الظالمة والنفعيّة والانتهازيّة، ليبقى الضررُ نصيبَ الطبقات المضطهدة والمظلومة.

وللأسف، فإنَّهُ مُضافاً إلى آثار هذا الفهم الخاطئ ونتائجه السلبيّة، فقد أصبح في الوقت الراهن الصبغة الأساسيّة والثابتة للمجتمع الإسلاميّ، وأيّ تفسيرٍ آخر للصّبر - حتّى وإن كان مقبولاً

ومنطقيّاً عند أصحاب الأذهان الخالية منه والتي لم يسبق لها التعرّف عليه - إلّا أنَّهُ يحتاج للاستدلال والجهد والنشاط الذهنيّ من أجل إيصاله لأولئك الّذين لم يتعرّفوا في عصرنا على المعارف الإسلاميّة بشكل صحيح، والذين غالباً ما يكون البحثُ معهم دون نتيجة إيجابيّة.

وعندما تتمّ مطالعة الآيات والروايات المتعلّقة بالصّبر بشكل جامعٍ وشاملٍ، يشتدّ التأسّف والتعجّب والتألّم بمراتب بسبب هذا التحريف الأساسيّ والبنيويّ.

نظرةٌ عامّة على أدلّة «الصّبر»

إذا ما فسّرنا «الصّبر» طبق الدلالات الصريحة وغير المشوبة للآيات القرآنيّة والروايات الصادرة عن الأئمّة عليهم السلام، فإنّ النتيجة هي على عكس الاستنتاج الرائج والمتداول والعامّيّ تماماً، وعلى الجهة المخالفة له.

من خلال هذه النظرة، سيتبدّل «الصّبر» إلى رافعةٍ حديديّةٍ تقلب وترفع أثقل الموانع وأكبر المشكلات بسهولةٍ ويُسر، وتزيلها محقّقةً نتائج إيجابيّة مائة بالمائة. وحينها سيكون بالنسبة للمجتمع البائس مفتاحاً لكلّ أبواب السعادات والخيرات. وسيكون من جهةٍ أخرى مانعاً ورادعاً وعائقاً أمام قوى الشرّ والبؤس أيضاً.

ولمعرفة مفهوم «الصّبر» ومضمونه والمجالات التي يُستخدم فيها، فإنّ الطريق الوحيد المثمر هو الرجوع إلى القرآن الكريم والحديث الشريف، فإنَّهُ من خلال التحقيق والتدقيق فيهما، يمكن إصدار حكم صحيح.

أمَّا القرآن الكريم، فقد ذكر «الصّبر» و«الصّابرين» في أكثر من سبعين آيةٍ بيّنةٍ وواضحةٍ، مثنياً على هذه الصفة وعلى المتّصفين بها، وذاكراً النتائج المترتّبة عليها، والحالات والموارد التي ينبغي أن تزيد الأمل في الّذين يتمسّكون بهذه الخصلة.

إلّا أنَّنا في هذا البحث المقتضب، لم نذكر الآيات القرآنيّة المتعلّقة والمرتبطة بالصّبر، بل اكتفينا بالتدقيق في الروايات الشريفة والاستنباط والاستنتاج منها، وذلك لسببين:

- **أوّلاً**: لأنّ الرجوع إلى الآيات القرآنيّة التي تناولت مفهوم «الصّبر» والتدقيق فيها يستلزم الدخول في بحثٍ واسعٍ يتطلّب صبراً وطول أناةٍ، ويحتاج إلى فرصةٍ ومجالٍ أوسع.

- **ثانياً**: لأنَّنا من خلال استعراض الأحاديث الشريفة نساهم في رفع النسيان والإهمال والتجاهل الّذي تعرّضت له أحاديث المعصومين عليهم السلام، حيث إنَّ خلوّ الأبحاث والدراسات الإسلاميّة الحديثة منها أمرٌ محسوس تماماً، وبذلك تظهر كيفيّة وطريقة الاستفادة والاستنتاج من الروايات الشيعيّة لأولئك الّذين يجهلون الدورَ الوضّاء والمُشرق للحديث الشريف[1].

(1) على النقيض تماماً لمنهج أولئك الذين نسوا دور القرآن بالكلّيّة أو إلى حدٍّ كبير في التعرّف على أصول وفروع الإسلام، وجعلوا الحديثَ عمليّاً - مهما كان نوعه ضعيفاً - المصدرَ الوحيدَ للاستنباط ومعرفة الدين، وهم حتّى الآن لا يزالون يفعلون ذلك، وهذا يعني أنَّ نفس هذا التطرّف الجديد - التجاهل المفرط للحديث - هو انعكاسٌ طبيعيٌّ لهذا المنهج.

المفهوم الإجماليّ للصبر

وفقاً لما يتمّ استحصالُهُ من مجموع الروايات، يمكن تعريف الصّبر على النحو التالي: «**مقاومة السالك لطريق التكامل في مقابل الدوافع الباعثة على الشرّ والفساد والانحطاط**».

على سبيل المثال: يمكن تشبيه ذلك بنشاط متسلّق الجبال. ففي طريق الوصول إلى قمّة الجبل العالية، هناك عقبات وموانع، سواء من داخل الإنسان وباطنه، أم من خارج كيانه، وكلٌّ منها تزعجه وتمنعه وتحدّ من حركته.

أمَّا ما هو من داخله: فطلبُ الراحة، والخوف، واليأس [من الوصول إلى الهدف]، والأهواء المُختلفة، فإنَّها تمنعه من المُضي، ويُقتل فيه الدافع للتحرّك والتسلّق بواسطة الوساوس الصادّة [إيّاه عن ذلك].

وأمَّا ما هو من خارج كيانه: فالحجارة، والصخور، والذئاب، واللصوص، والأشواك، وغيرها ... فإنَّها تمنعه عمليّاً من التقدّم.

والشخصُ الّذي يواجه مضايقات من هذا القبيل، إمّا أن يتخلّى عن الانطلاق في هذا الطريق الخطير والمليء بالمشاكل وينصرف عن الاستمرار في مواصلته، وإمَّا أن يقاومها ويتجاوز كُلَّ مانعٍ وعقبة بمعونة الإرادة والتحمّل، ليكمل عمله ومسيره. وهذا الثاني هو الصّبر.

والإنسانُ خلال مرحلة حياته المحدودة في هذا العالم، وفي الفترة الفاصلة بين الولادة والموت، ماضٍ وسالك في طريقٍ نحو مقصدٍ وهدفٍ. وفي الأساس، لقد تمَّ خلقُهُ؛ من أجل أن يُقرّب

نفسَهُ أكثر إلى هذا المقصد والهدف، وكلّ الوظائف والتكاليف المُلقاة على عاتقه هي وسائل وخطوات ضروريّة ولازمة؛ حتّى تقرّبه منه. كما أنّ البيئة والمجتمع الإسلاميّ - والّذي كان إنشاؤه أوّلَ وأقربَ هدفٍ للأديان السماويّة والأنبياء عليهم السلام؛ من أجل بناء [ذلك الإنسان] وصقله - هما ميدانٌ ومناخٌ مناسبٌ لطيّ هذا الطريق والوصول إلى تلك الغاية والخاتمة.

ذلك الهدف - وبعبارةٍ مختصرة - هو عبارة عن سموّ وارتقاء الإنسان وتكامله، وتفجّر ينابيع الاستعدادات المودعة في وجوده، وهذا ما يُعبّر عنه في تراثنا الدينيّ بتعبيراتٍ مختلفة، من قبيل: «التخلّق بالأخلاق الإلهيّة»، و«القرب من الله»، وغيرها من التعبيرات.

في هذا الطريق - والّذي هو طريقٌ صعبٌ وشاقٌّ بالطّبع - توجد موانع ومعوّقات كثيرةٌ، وكلُّ واحدةٍ من هذه الموانع كافيةٌ لوحدها أن تمنع متسلّقَ قمّة الكمال والارتقاء من إكمال طريقه ومسيره.

فمن داخل النفس، توجد كُلُّ الصفات والخصال السيّئة والقذرة وغير المتّزنة. ومن الخارج، توجد كُلُّ اضطرابات العالم الخارجيّ والواقعيّ، التي تخلق وتوجد سلسلةً من أشواك الطرق والصخور والموانع.

والصّبر يعني الوقوف مقابل جميع هذه الموانع والعقبات ومقاومتها، والعبور عنها والتخلّص منها بإرادةٍ وعزيمة راسخين.

وكما قلنا، فإنّ جميع التكاليف الإسلاميّة - سواء الفرديّة أم الاجتماعيّة - تعدُّ وسائل وخطوات في طريق الوصول إلى هذا

المقصد، وبالتالي، فإنّ كلّ واحدةٍ بدورها هي مقصدٌ وهدفٌ قريب.

فبالنسبة للشخص الّذي يسافر إلى مدينةٍ بعيدة، ويقطع الصحاري، فإنَّ الوصولَ إلى كُلِّ ضيعةٍ مسكونةٍ، وإلى كلِّ منزلٍ في الطريق، والحصول على معدّات ومستلزمات السفر قبل البدء بالتحرّك، يعدُّ هدفاً قريباً له، إلّا أنَّهُ هدفٌ ومقصدٌ هو بنفسه مقدّمةٌ ووسيلةٌ في طريق ذلك الهدف النهائيّ والأصليّ. بل إنَّ كُلّ خطوةٍ تُتّخذ، فإنَّها في عين الوقت الذي تكون فيه وسيلةً لحصول النتيجة النهائيّة، إلّا أنَّها تُعتبرُ في حدّ ذاتها نتيجة العديد من المقدّمات الأخرى، وتُحسب هدفاً قريباً.

والمقصود بهذا البيان، أنّه من أجل الوصول إلى كُلِّ واحدٍ من هذه الأهداف والمقاصد القريبة، يوجد هناك شرطٌ أساسيّ أيضاً وهو التحلّي بالصّبر، واستخدام هذه الحَربة القاطعة الحادّة.

وكما أنّهُ يوجد موانع كثيرة على طريق ذلك الهدف النهائيّ، توجد عوائق داخليّة وخارجيّة لا حصر لها أيضاً أمام كلّ واحدٍ من التكاليف والوظائف الإسلاميّة - والتي هي في نفس الوقت أهداف قريبة ووسائل لأجل الوصول للهدف النهائيّ - .

فمن جهةٍ، هناك دوافع باعثة على الانحطاط والانتكاس الداخليّ مثل الكسل والخمول، واستسهال الأمور، واللامبالاة، وحبّ الذات، والعُجُب، والغرور، والحرص، وطلب الراحة، والدعة، والرئاسة، والشهرة، والأهواء الجنسيّة، وزيادة المال، وعشرات الخصال الخسيسة والضارّة الأخرى.

ومن جهةٍ أخرى، هناك الأوضاع والظروف غير المؤاتية والمُعيقة، والتّبعات القهريّة والقسريّة التي تُفرض على البشر جرّاء أشكال الأنظمة الاجتماعيّة الحاكمة، فإنَّ كلَّ واحدةٍ من هذه العقبات تؤثّر بطريقةٍ ما في منع الإنسان من أداء تكاليفه الإلهيّة البنّاءة، سواء التكاليف الفرديّة مثل العبادات، أم التكاليف العموميّة مثل السعي لإعلاء كلمة الحقّ[1].

إنّ الّذي يضمن أداء أيّ تكليفٍ، واتّخاذ أيّ خطوة، وطي أيّ طريق، وتحقيق أيّ نتيجة، هو مقاومة الإنسان في مقابل هذه الموانع والعقبات، وتجاوزه هذه المضايقات، وهذا معناه: الصّبر.

أهمّيّة الصّبر في الروايات

من خلال أحاديث عديدة ضمن مجموعة الأحاديث حول الصّبر، والتي تحكي وتدلّ على أهمّيّة الصّبر في الإسلام وفي الأديان الإلهيّة كافّة، يظهر - وبجملةٍ واحدةٍ - أنَّ الصّبر توصية جميع الأنبياء وقادة الحقيقة لخلفائهم وأتباعهم.

إذا أخذنا بعين الاعتبار حالةَ الأب العطوف، والمعلّم الشفيق، الّذي كرّس عمره بالكامل في السعي الجادّ، والمجاهدة، والجهد، وتحمّل المشاقّ، والاضطهاد، والحرمان؛ لأجل تحقيق الهدف الّذي يصبو إليه، فإنَّهُ في اللحظة التي سيودّع فيها الحياة إلى الأبد، وفي تلك اللحظة المقرّر فيها أن تُصبح يده قاصرةً عن متابعة هذا الجهد وهذا النشاط

(1) إعلاءً لاسم وشعار الحقّ والحقيقة. إشارة إلى الآية (40) من سورة «التوبة» المباركة، وهي قوله ﷻ: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾. **(الناشر)**

الّذي لطالما أعطى حياتَهُ المعنى والاعتبار، لكنّ قلبه لا يزال مرتبطاً بذلك الهدف، ما هي الوصيّة التي يوصي بها وارثه ومن يتابع عمله من بعده، والّذي يستطيع - بحسب رأيه ونظره - أن يُكمل طريقه وعمله، وأن يخطو خطوةً أخرى ليقترب بهذا الحمل الثقيل إلى المقصد؟

لن يكون ذلك سوى عصارة وخلاصة جميع تجاربه وذخائره العلميّة والعمليّة، وكلّ تلك الأشياء التي يمكن أن تقال وتُنقل في هذه اللحظة الأخيرة، فإنَّهُ إن استطاع سينقلها له بجملةٍ، وسيجعلها بصورة وصيّة إرشاديّة وتعليميّة تختزن بداخلها كلّ مُدركاته ومعارفه القيّمة، ويقدّمها إلى هذا التلميذ، والوارث، ومن سيتابع عمله من بعده. وفي الحقيقة، ستصنع نقطةُ نهاية حياته نقطةَ بداية تكامل الشّخص الّذي سيأتي من بعده.

آخر وصيّة للأنبياء والأولياء والصلحاء والشهداء والمجاهدين في سبيل الله ﷻ، ولمؤسّسي وبناة المجتمع الإلهيّ السامي، وآخر هداياهم الفكريّة التي قدّموها لخلفائهم، هي التوصية بالصّبر.

الآن، التفت إلى هذين الحديثين:

الحديث الأوّل

عَنْ أَبِي حَمْزَةَ - الثمالي - قَالَ: «**قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام : لَمَّا حَضَرَتْ أَبِي عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام الْوَفَاةُ، ضَمَّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: يَا بُنَيَّ! أُوصِيكَ بِمَا أَوْصَانِي بِهِ أَبِي حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، وَبِمَا ذَكَرَ أَنَّ أَبَاهُ أَوْصَاهُ بِهِ: يَا بُنَيَّ! اصْبِرْ عَلَى الْحَقِ وَإِنْ كَانَ مُرّاً**»[1].

(1) راجع: «الكافي»، للشيخ الكلينيّ رحمه الله، ج2، ص 91، باب الصّبر، ح13.

وأبو حمزة الثُمالي، الّذي يُعتبرُ من خواصّ أتباع أهل بيت النبيّ ﷺ المُخلصين، وأحد العناصر الرئيسيّة في جبهة التشيّع الحقيقيّ، ينقل عن إمامه ومعلّمه وقائده الإمام الباقر عليه السلام أنَّهُ قال: «**لَمَّا حَضَرَتْ أَبِي عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام الْوَفَاةُ، ضَمَّنِي إِلَى صَدْرِهِ ...**».

الإمامُ الباقر عليه السلام، خليفة أبيه العظيم، ووارثُ أعباء الأمانة، والمتابعُ لطريقه ومشروعه، بل هو استمرارٌ لوجوده عليه السلام، كما أنَّ أباه الإمام عليّاً بن الحسين عليه السلام استمرارٌ لوجود وكيان الإمام الحسين بن عليٍّ عليه السلام أيضاً. وكلّ واحدةٍ من شخصيّات سلسلة الإمامة استمرارٌ لوجود الإمام السابق. وكلّهم عليهم السلام استمرارٌ لوجود رسول الله ﷺ. كلّهم عنصرٌ واحدٌ، ونورٌ واحدٌ، وعلى خطٍّ واحدٍ، ويسيرون على طريقٍ واحدٍ، ويرومون تحقيق هدفٍ واحدٍ - بالتفصيل الّذي ذكرناه وكتبناه في مبحث الإمامة -[1].

«**... وَقَالَ: يَا بُنَيَّ! أُوصِيكَ بِمَا أَوْصَانِي بِهِ أَبِي حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ ...**».

جميعنا نعلم أين وبأيّة حالة كان الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام حين حضرته الوفاة. هناك في تلك الأجواء الشديدة ليوم عاشوراء، ووسط كلّ تلك المعاناة والآلام والمصائب، وفي خضم كلّ تلك المشاكل والأسى الّذي خيّم على أجواء كربلاء الدامية، وفي حصار الأعداء المتعطّشين للدماء، ينتهز الحسين بن عليّ عليه السلام فرصةً

(1) يقصد دام ظله تلك المباحث حول موضوع الإمامة والتي جاءت في كتاب «همرزمان حسين عليه السلام»، الصادر عن مؤسّسة الثورة الإسلاميّة للثقافة والأبحاث، والذي عُرّب من قبل المؤسّسة نفسها، وطُبع في العام 2020 م تحت عنوان: «الحسين عليه السلام مسيرةٌ متواصلةٌ». وقد اشتمل هذا الكتاب على خطاباته دام ظله حول الإمامة، والتي ألقاها في العام 1351 ه- ش، الموافق للعام 1973 م، في «طهران». (**الناشر**)

قصيرةً، وقبل أن يحمل حملته الأخيرة على جيش معسكر الأعداء، يرجع من ميدان القتال إلى خيام معسكره، وبعد لقاءٍ قصيرٍ مع أفراد عائلته الّذين من المفترض أن يواصل كُلُّ واحدٍ منهم بحسبه ثورتَهُ ونهضته عليه السلام، أجرى مع ابنه وخليفته الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام، محادثةً قصيرةً إلّا أنَّها كانت مليئةً بالآثار، وغايةً في الأهمّيّة.

تسمّى هذه المحادثة باللغة المتعارفة والعامّيّة «وداعاً»، لكن ينبغي أن يُعلم أنَّ الإمام [المعصوم] لا يقع تحت تأثير العواطف إلى حدّ تفويت آخر فرصةٍ في حياته، فبدل أن يتحدّث بأهمّ وصاياه، يتحدّث بأحاديث أخرى، ويتعامل مع قضايا شخصيّة وخاصّة وعاطفيّة، وما وصلنا حول الوصايا الأخرى لأئمّتنا العظام عليهم السلام أيضاً، لا يشبه هذا الأمر ولا يؤيّده.

يعلم ذلك العظيم، أنَّهُ في هذا الوقت الحسّاس، الأمانةُ التي حملها عليه السلام على عاتقه منذ بداية فترة إمامته، والتي بذلَ كُلَّ عمره وجهده في سبيلها، وقبله قام مؤسّسُ الثورة الإسلاميّة، أي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك أميرُ المؤمنين والإمامُ الحسن عليهما السلام، بالتحرّك وبذل كُلّ الجهد في سبيلها، وتحمّلوا كلَّ معاناةٍ ومشقّةٍ لأجلها، ينبغي أن يُعهد بها بعده إلى فردٍ صاحب ذراعٍ قويّة وقدمٍ ثابتة؛ ليخلفه فيها. لذا، جاء ليقدّم له أهمّ وصاياه.

فما هي هذه الوصيّة المهمّة جدّاً، والقيّمة؟

الآن، الإمامُ عليُّ بن الحسين عليه السلام - الّذي هو نفسُهُ في وضعٍ مشابهٍ إلى حدٍّ ما لما كان عليه أبوه الإمامُ الحسين بن عليّ عليه السلام

في ذلك اليوم - يكشف النقاب عن هذا السرّ لابنه وخليفته الإمام الباقر عليه السلام، ويُعيد توصيته بتلك الوصيّة[1]، ويذكر له ضمناً أنَّ الإمام الحسين بن عليٍّ عليه السلام أيضاً كان قد سمع هذه الوصيّة من أبيه أمير المؤمنين عليه السلام صراحةً، وتلقّاها منه.

قال عليه السلام: «**وَبِمَا ذَكَرَ أَنَّ أَبَاهُ أَوْصَاهُ بِهِ**».

فإذاً، هذه وصيّةٌ انتقلت من عهد أصل سلسلة الإمامة، أي أمير المؤمنين عليه السلام، يداً بيد، ووصلت من كلّ إمام إلى الإمام الّذي يليه.

ما هي هذه الوصيّة؟ حاصلُها وخلاصتها: «**الصّبر**».

«**يَا بُنَيَّ! اصْبِرْ عَلَى الْحَقِ وَإِنْ كَانَ مُرّاً**».

أي لا تتردّد في سلوك طريق الحقّ، ولا تهتمّ للموانع والعقبات. وعندما تشخّص وتعرف أنَّ عملاً وطريقاً ما حقٌّ، لا ترفع اليد عنه. وإذا ما واجهت في هذا الطريق الصعوبات والمرارات والإخفاقات والمنغّصات، تحمّل كُلَّ هذه الأمور، واصبر عليها، وتابع مسيرك وطريقك.

من الواضح أنَّهُ في ميدان المواجهة بين الحقّ والباطل، لا محلّ للراحة والعيش الرغد واللذّة، وإنَّما هناك الشدائد والمتاعب، فاصبر على هذه الشدائد والمتاعب، واثبت على الحقّ الموجب لهذه المنغّصات.

(1) نُشاهد في كتب السيرة والحديث، وصيّة أمير المؤمنين، والإمام الحسن، والإمام الصادق، وغيرهم من الأئمّة عليهم السلام، وجميعها تؤيّد هذه الحقيقة.

هـذه هي الوصيّة التي أوصى بها أميرُ المؤمنين عليه السلام الإمامَ الحسين بن عليّ عليه السلام، والّـذي بـدوره أوصـى بها الإمـامَ عليّاً بـن الحسين عليه السلام، الّـذي أوصـى بها الإمـامَ الباقر عليه السلام. وقد رأينا وعلمنا أنَّ أميرَ المؤمنين عليه السلام وأئمّةَ الحقّ والأدلّاء على الخير عليهم السلام، قد عملوا بهذه الوصيّة أيضاً، وثبتوا على الحقّ حتّى آخر لحظات حياتهم، وتقبّلوا بأرواحهم جميع عواقب هذا الصّبر العسير ولوازمه، وصاروا بحقّ مصداقاً لهذا البيت الشعريّ العربيّ الجميل:

سَـأَصْـبِـرُ حَـتَّـى يَـعْـلَـمَ الـصَّـبْـرُ أَنَّـنِـي

صَـبَـرْتُ عَـلَـى شَـيءٍ أَمَـرّ مِـنَ الـصَّـبْـرِ

لذلك، بالنسبة لأهمّيّة الصّبر، يكفي أنَّ سلسلة أولياء الله عليهم السلام كانوا يعهدون به في آخر لحظات حياتهم إلى ورثة الأمانة والإمامة مثل جوهرةٍ ثمينةٍ وميراثٍ نفيس، يتناقلونه من يدٍ إلى يد.

الحديث الثاني

عَنْ «فقه الرضا عليه السلام»: «**وَنَرْوِي: أَنَّ فِي وَصَايَا الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ: اصْبِرُوا عَلَى الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرّاً**»[1].

«فقه الرضا عليه السلام» كتابٌ منسوبٌ للإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام. ويتضمّن جزءٌ من هذا الكتاب مسائل حقوقيّة إسلاميّة، أي ذلك الّذي نعبّر عنه اصطلاحاً بـ «الفقه» - وهي

(1) راجع: «فقه الرضا عليه السلام»، المنسوب للإمام الرضا عليه السلام، ص368، باب الصّبر والكتمان والنصيحة.

بالطّبع محدودةٌ أكثر بكثير من معنى هذه الكلمة بحسب اصطلاح القرآن والحديث - وجزءٌ منها يتعلّق بمسائل أكثر عموميّة في مجال المعارف الإسلاميّة ومعرفة الأساليب والأهداف والوسائل - وهذا ما يشكّل المعنى الوسيع والكامل للفقه - ومن جملة ذلك، هذا الحديث الّذي يُعتبر درساً مليئاً بالمعاني:

- «**وَنَـرْوِي**»: أي أنَّ هذا الحديث ميراثٌ وتذكارٌ ومن ذخائر أسرتنا، سمعناه عن آبائنا وأسلافنا، وقد قالوه لنا دائماً، ونحن بدورنا نوصي به الآخرين أيضاً.
- «**أَنَّ فِي وَصَايَا الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ**»: من جملة وصايا أنبياء الله عليهم السلام إلى ورثة طريقهم وأتباعه، وإلى متحمّلي أحاديثهم الأمناء والملتزمين، وإلى تلامذة مدرسة الوحي وأتباع دعوتهم عليهم السلام، هذا الدرس: «**اصْبِرُوا عَلَى الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرّاً**»، وهي عين الجملة التي كانت قد نُقلت عن قادة مسيرة الإمامة عليهم السلام دون زيادة أو نقصان.

ولعلّ أقصر وأخصر، - وفي نفس الوقت - أكثر جملةٍ ذات مغزى كبير تستطيع أن تُبرز أهمّيّة الصّبر، هي هذه الجملة المنقولة عن الأنبياء والأئمّة «**عليهم الصلاة والسلام**».

ولبيان أهمّيّة الصّبر، نقول مستلهمين من هذين الحديثين [آنفي الذِّكر]: «**هو وصيّة الأنبياء والأولياء لورثتهم وتلامذتهم**».

الآن، دعونا نرى ما هي موقعيّة ودور هذه الخصلة ضمن المنظومة الدينيّة بحيث نالت هذا القدر من الاهتمام عند أولياء أمر الدّين وأئمّته عليهم السلام؟

موقعيّة الصّبر ضمن منظومة القوانين الإسلاميّة

بدايةً أريد أن أقدّم توضيحاً موجزاً حول هذه العبارة:

ما المقصود من «**موقعيّة الصّبر ضمن المنظومة الدينيّة**»؟

الدين، مجموعةٌ مركّبةٌ ومؤلّفةٌ من معارف ومقرّرات حقوقيّة وأخلاقيّة، شأنُهُ شأن أي مدرسةٍ اجتماعيّة بنّاءة أخرى.

1. أساساً وأصالةً، هو تفكّر ورؤيةٌ وتصوّرٌ عن العالم والإنسان، وهو ما يُعبّر عنه بـ «**الرؤية الكونيّة**».
2. كما أنَّهُ يشتمل على الأصول العمليّة والسلوك العامّ لحركة وفعاليّة الإنسان، وهو ما يُعبّر عنه بـ «**الأيديولوجيا**».
3. ويتضمّن ضمن إطاره العامّ المقرّرات والقواعد التي ترسم وتعيّن روابط وعلاقات الإنسان الضروريّة والحتميّة، أي علاقته وارتباطه بالله ﷻ، ومع نفسه، ومع غيره من البشر، ومع الموجودات الأخرى من غير البشر.
4. [كذلك يشتمل على] سلسلةٍ من الأوامر والتعاليم الأخلاقيّة؛ لأجل الزيادة في الانطلاقة المعقولة والجهد اللازم في عمليّة التكامل والرقيّ الواقعيّ وتحقيق التوفيق في ميادين الحياة والساحات التي لا غنى للإنسان عن الحضور فيها لأجل تكامله.

وبالطّبع، تشتمل هذه المنظومة على قضايا فرديّة، أي تلك القضايا التي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالمصالح الفرديّة والشخصيّة للأفراد. كما تشتمل على مسائل وقضايا اجتماعيّة أيضاً، أي تلك التي تتعلّق وترتبط بمجموعات وطبقات بشريّة كبيرة، أو بالمجتمع الإنسانيّ وبمجتمع المسلمين.

الآن، ما هو دور وتأثير الصّبر ضمن هذه المنظومة الدينيّة؟

وبتعبيرٍ آخر: لو نظرنا إلى إنسانٍ منتمٍ للدين، إنسانٍ مؤمنٍ، إنسانٍ ينبغي أن يكون معتقداً بالأصول، عاملاً بالمقرّرات، ومتّصفاً بالخصوصيّات والمميّزات الأخلاقيّة والروحيّة، فلو وُجدت هذه الحالات الثلاث في حياة شخصٍ ما، بحيث كان مرتبطاً بالدين ومؤمناً حقّاً وبشكلٍ صحيح، هنا نريد أن نعرف أنَّهُ ما هو دور الصّبر في إيمان وتديّن وإسلام مثل هذا الشخص؟

في الشكل الهندسيّ ذي الأضلاع والزوايا، كُلّ خطٍّ، وكلّ زاويةٍ، وكلّ قوسٍ أو نصف دائرة لها موقعٌ وتأثير. فما هو تأثير وموقعيّة الصّبر في الشكل الهندسيّ لإيمان الفرد أو في الخريطة العامّة للدين؟

على سبيل المثال: لو نظرنا إلى السيّارة التي من المفترض أن تنقل الأشخاص مع كلّ حمولتهم ومعدّاتهم إلى مقصدٍ ما، وتسافر في الصحاري وتصل إلى النقطة المطلوبة بأمان. ما هو الشيء الّذي يحرّك هذه السيّارة؟ تتحرّك بواسطة المحرّك. ما الّذي يعطي القوّة والروح للمحرّك؟ هو الوقود. هنا يمكن اعتبار الصّبر بمثابة المحرّك في مسيرة التكامل - والتي هي الدين - أو اعتباره الوقود لهذا المحرّك.

فلو لم يوجد الصّبر، فإنَّهُ لن تُفهم الكلمةُ الحقّة لمدرسة الدين الرفيعة ولا منطقُهُا المُحكم، ولما حافظت معارف هذا الدّين على مكانتها كأفضل وأرقى المعارف البشريّة في العالم، ولولاه لما بقي للمؤمنين الأمل والانتظار لذلك اليوم الّذي ينتصر فيه الدّين،

ولفقدوا الخطوة الثابتة واليد القويّة، ولتوقّف العمل بالمقرّرات والقوانين البنّاءة للدّين والتي تتعارض كلّيّاً مع تمرّد وطغيان الغرائز البشريّة.

لولا الصّبر، سيتبدّل ميدان الجهاد في سبيل الله والدّين ليُصبح مقبرةً للمُثُل، وسيخلو مؤتمرّ الحجّ العالميّ الّذي هو ميعاد الإخوة المتباعدين، وستخفت الهمسات المبتهجة لمناجيات خلوات جوف الليل، وستفقد ساحةُ التدرّب على جهاد النفس - أي الصيام والإمساك والامتناع الاختياريّ - رونقها، وسوف يجفّ شريان الاقتصاد في المجتمع الإسلاميّ؛ حيث سيُترك الإنفاق في سبيل الله ﷻ.

لولا وجود الصّبر، لصارت كلّ القيم العمليّة والأخلاقيّة للإسلام، كالتقوى والأمانة والصدق والورع طيَّ النسيان.

وباختصار، لولا هذا الشرط الأساسيّ، لبقي كُلُّ شخصٍ محروماً وبعيداً عن الدين والإنسانيّة اللذين يتطلّبان الجهد والعمل؛ فالدين هو العمل، والعمل يحتاج إلى صبر.

لذا، فإنَّ الّذي يُعطي هذه المنظومة [الدينيّة] العظيمةَ الروحَ والقدرةَ، والّذي يجعل قطارها يتحرّك، هو الصّبر.

بهذا البيان يمكننا أن نفهم بوضوح مفاد ومعنى هذا الإلهام السماويّ الّذي نُقل إلينا ووصلنا بعدّة أسانيد وعن عدّةٍ من المعصومين عليهم السلام - مع اختلافٍ يسير في بعض الألفاظ - من أنَّ:

«**الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ**»[1].

للرأس في الجسم خاصّيّةٌ حيويّة أساسيّة، ويمكن تحمّل فقدان أيٍّ من أعضاء الجسم الظاهريّة، مثل اليد، والقدم، والعين، والأُذن وغيرها، أمَّا الرأس - والّذي هو مركز قيادة الأعصاب - إذا ما فُقد، أو أُصيب بالشلل، فإنَّ جميع هذه الأعضاء وسائر أعضاء الجسم الأخرى ستُصاب بالشلل. من الممكن أن تبقى حيّةً، لكن على مستوى العمل والتأثير، لن يكون لها أيّ فارق بينها وبين الأعضاء الميتة.

ربّما يكون العملُ الّذي يقوم به عضوٌ آخر أكثر إلفاتاً للنظر، فقد تفعل القبضة المشدودة والذراع القويّة ويد الإنسان وإصبعه وعينه أفعالاً أكثر وضوحاً وبروزاً، ولكن كلّ هذا يحصل ببركة وجود الرأس.

هكذا هو الأمر بالنسبة للصّبر.

إذا لم يوجد الصّبر، لن يدوم التوحيد، ولن تثمر نبوّة الأنبياء عليهم السلام وبعثتهم، ولن يتشكّل مجتمعٌ إلهيّ وإسلاميّ، ولن تُستوفى حقوقُ المُستضعفين، وأيضاً لن يبقى محلٌّ للصّلاة والصّوم والعبادة والذِّكر.

ولذلك، الصّبر هو الّذي يُحقّق كُلَّ أفكار الدّين والإنسانيّة.

في صدر الإسلام، لو لم يَثبُت النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على كلامه، ولو لم يقاوم كُلَّ تلك التيّارات المُعارضة، فمن المؤكّد أنَّ نشيد الإسلام

(1) راجع: «الكافي»، للشيخ الكلينيّ رحمه الله، ج2، ص 87، باب الصّبر، ح2. وأيضاً: ص 89، باب الصّبر، ح4.

لم يكن ليتجاوز جدران بيته ﷺ الأربعة، ولكان مصير شعار «لا إله إلّا الله» النهاية من نقطة البداية.

الشيء الّذي حفظ الإسلام، هو الصّبر. ولو لم يصبر أولياءُ الله وأنبياؤه العظام عليهم السلام، لما كان اليوم أيّ خبرٍ وأثرٍ لأصل التوحيد.

العاملُ الّذي حفظ وصان الرسالةَ الإلهيّة وجذوةَ التوحيد من بداية خلق البشريّة إلى اليوم، هو صبرُ حاملي راية هذا الفكر، وهو الّذي سيحفظهما ويصونهما من اليوم وإلى يوم القيامة أيضاً.

إنَّ أكثر كلمات وأفكار البشر منطقيّةً إذا لم تكن مصحوبةً بصبر أصحابها والمنادين بها، ستجفّ في الأفواه وعلى الألسن، وستختفي وتزول وسط الأمواج المتلاطمة لمحيط التاريخ.

ولهذا صار مقبولاً ومفهوماً تماماً أنَّ:

«**الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ**»[1].

يُحلّلُ أميرُ المؤمنين عليه السلام في خطبته «القاصعة» تطوّرَ حياة المستضعفين في التاريخ، وانتصارهم على الجبابرة، ونجاح أفكارهم الشريفة، فيقول:

«**حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ وَالِاحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلَاءِ فَرَجاً، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً، وَأَئِمَّةً أَعْلَاماً، وَقَدْ**

(1) راجع: «الكافي»، للشيخ الكلينيّ رحمه الله، ج2، ص 87، باب الصّبر، ح2. وأيضاً: ص 89، باب الصّبر، ح4.

بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الْآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ»[1].

هذه سنّة تاريخيّة، ولذا ستكون على هذا المنوال إلى الأبد.

فإذاً، ولأجل بيان موقعيّة الصّبر ضمن المنظومة الدينيّة الإسلاميّة، نستطيع القول: هو سرّ تحقّق كُلّ أفكار وأهداف الدين - سواء الأهداف القريبة أم البعيدة - وكذلك الأفكار الفرديّة والاجتماعيّة.

مكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي
غير مخصص للبيع أو الطباعة

(1) راجع: «نهج البلاغة»، للشريف الرضيّ ﷺ، الخطبة: 192، ص: 296-297.

ميادينُ الصّبر

من خلال تفسيرنا للصّبر والّذي يمكن تلخيصُهُ بهذه الجملة: «المقاومة في مواجهة العوامل الموجدة للشرّ والفساد والانحطاط ...»، يُمكن معرفة مواطن الصّبر والميادين والمجالات التي تتطلّب التحلّي به.

من الواضح أنَّ حديثنا هو عن الصّبر الّذي أُشير إليه في النصوص والمصادر الإسلاميّة - أي القرآن الكريم والأحاديث الشريفة - والّذي وُعِدَ بالأجر الدنيويّ والأخرويّ الكثير عليه.

ولا شكّ في أنَّ ذلك الجنديّ الجاهل والمرتزق الّذي قاوم رُسُلَ الحقّ والعدالة والحقيقة - أي أبطال وطليعة وروّاد الإسلام - في ميدان الحرب، وقدّم روحه على حساب طاعة أوامر أربابه الأنانيّين في ساحة المعركة، أو صاحب الثروة والطاغية وصاحب المقام الّذي وقف وقاوم في مواجهة دعوة الحقّ من أجل المحافظة على تسلّطه وثروته ومقامه، أو المجموعات والفئات الأخرى التي تصدُّ كُلُّ واحدةٍ منها عن الحقّ بدافع الأهواء والهوس، جميعهم يشتركون مع الصّابرين على طريق الحقّ باسم ولفظ «الصّبر» فقط. ولأنَّ مقاومة هؤلاء واستقامتهم لم تكن في طريق تكامل الإنسان، بل كانت في الاتّجاه المعاكس والمناهض له، ولأنَّها لم تكن في مواجهة دوافع الشرّ والفساد والانحطاط بل كانت في مواجهة تجلّيات وإشراقات التكامل والرقيّ الإنسانيّ؛

لذا هم خارج دائرة مفهوم الصّبر بحسب اصطلاح القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

فإذاً، الميدان الواقعيّ للصّبر، هو ميدان تكامل الإنسان.

مَوطِنُ ومحلُّ الصّبر، هو حيث يتحرّك المرءُ ويسعى للوصول إلى الهدف الواقعيّ من خلقه، ونحو المقصد النهائيّ للإنسانيّة - أي أن يصير إنساناً كاملاً، وعبداً حقيقيّاً لله ﷻ، وأن تظهر لديه الطاقات والاستعدادات الإنسانيّة الكامنة -.

موطنُهُ هناك حيث ينبغي المقاومة في مواجهة أيّ دافعٍ وعاملٍ يعيق ويمنع من تطوّره ومن السير والحركة والسعي والجهد، سواء كان هذا العامل ينبع من داخل كيانه، كالكسل، وعبادة الأنا، واللذّة، وطلب الراحة، والحرص، والخوف، والعجز، والشهوة، وغيرها، أم كان من خارج كيانه وقد حُمّل وفُرِضَ عليه، كالجاذبيّات والميول والمساعي الشيطانيّة، والأوامر والأنظمة الفاسدة، والأمور المفروضة والتي يُكْرَهُ عليها، والأنظمة والعقود الاجتماعيّة غير المتّزنة والخاطئة، وغيرها. وغالباً - أو دائماً - ما يكون هذان النوعان من الدوافع والعوامل غير قابلين للانفكاك عن بعضهما البعض، وبأيّ صورةٍ أو شكلٍ يكونا فهما تجلٍّ ومصداقٌ للشيطان.

للبيع أو الطباعة

أقسامُ الصّبر

في طريق التكامل - هذا الطريق الخطير والمليء بالمشكلات - تتفاوت الدوافع المعاكسة والمزاحمة بحسب التكاليف والحركات والمواقف:

في بعض الأحيان، يوجد مانعٌ أمام القيام بحركةٍ ضروريّة. وأحياناً يكون هناك ما يستوجب أداءَ حركة منحرفة وضارّة - وهذا في الحقيقة نوعٌ آخر من الموانع -. وأحياناً يكون هذا المانع مانعاً غير مباشرٍ.

في التمثيل بتسلّق الجبال، أحياناً يكون هناك صخور أو أشواك، أو سارقٌ أو ذئب على الطريق، ممّا يمنع من تحقيق تكليف إيجابيّ والّذي هو الحركة.

وأحياناً، قد يوجد منظرٌ جميلٌ، أو سريرٌ ناعم، أو رفيقٌ موسوسٌ يجعل المتسلِّقَ يترك مسير تسلّق الجبال، ويشجّعه على استبدال العزم على الرحيل إلى الإقامة والمكوث في ذلك المكان. وفي الحقيقة يُعتبر هذا الأمر مانعاً من نوعٍ آخر في طريقه.

وأحياناً أُخرى، يكون [المانع] المرض، أو الانشغال بمريض، أو بأمورٍ أخرى تسبّب له الغمّ والقلق، فتؤدّي بالنتيجة إلى فتور عزيمته، وتجرّه إلى عدم ثباته على الطريق، وهذا ما يعتبر من الموانع غير المباشرة.

هذه الأنواع الثلاثة من الأمور المزاحمة والموانع موجودةٌ على امتداد مساحة طريق تكامل الإنسان أيضاً.

وإذا ما اعتبرنا الواجبات الدينيّة أدوات وخطوات في طريق تكامل الإنسان، وأنَّ المحرّمات والأفعال الممنوعة حركةٌ منحرفةٌ، وأنَّ الأحداث المرّة في الحياة - والتي تكون بصورة قلق واضطراب - موجبةٌ لعدم الاستقرار والثبات، وللتثبيط وفتور العزيمة، عندئذٍ يمكن أيضاً تقسيم الأمور المزاحمة والموانع والدوافع المخالفة على النحو التالي:

- الدوافع والعوامل الباعثة على ترك الواجبات.
- الدوافع والعوامل الباعثة على ارتكاب المحرّمات والمعاصي.
- الدوافع والعوامل الباعثة على عدم الاستقرار والثبات الروحيّ.

والصّبر يعني: المقاومة وعدم الخضوع في مقابل جميع هذه الأنواع الثلاثة من الدوافع والعوامل المزاحمة التي لا شكّ في أنّها باعثةٌ على الفساد والشرّ والانحطاط.

فإذاً، الصبر يعني: المقاومة في مقابل الدوافع التي تمنع الإنسان من القيام بالأعمال والتكاليف الواجبة، أو الدوافع التي تجبره على القيام بالأعمال الممنوعة والمحرّمة، أو التي تسلب منه الصّبر والطاقة على تحمّل مصائب الحياة وأحداثها المؤسفة والمريرة.

وبهذا التوضيح يمكن إدراك مفهوم وعمق هذه العبارة البليغة الّتي نُقلت عن الرسول الأكرم وأمير المؤمنين عليهما السلام:

«عن أمير المؤمنين عليه السلام: قال رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: الصَّبْرُ ثَلَاثَةٌ: صَبْرٌ عِنْدَ

الْمُصِيبَةِ، وَصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وَصَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ»[1].

في كلِّ موردٍ من هذه الموارد الثلاثة، يعني عند حدوث حادثةٍ مريرة ومؤسفةٍ في الحياة، وعندما يُطلب من الإنسان القيام بتكليف أو وظيفة ما، وحينما يدعوه أمرٌ ما إلى ارتكاب أمرٍ ممنوعٍ ومنهيٍّ عنه، يُفتح أمامه أحد ميادين الصّبر، ويأتي دور ظهور بطولة الروح الإنسانيّة.

والآن، لكي يتّضح لنا المفهوم الواقعيّ لهذا المصطلح الإسلاميّ بشكل كامل، سوف نعمد إلى شرح كُلِّ نوعٍ من هذه الأنواع الثلاثة:

١. الصّبر على أداء التكاليف (الطاعة)

كلّ التكاليف والمهامّ الواجبة مصحوبةٌ بنوع من الكدّ والتّعب. **وبتعبير أدقّ**: تكون مصحوبةً بمقدارٍ من الجهد والنشاط - سواء الإيجابيّ أم السلبيّ - الّذي يكون موجباً للكدّ والتّعب بالنسبة للنفس البشريّة الطالبة للدِّعة والرّاحة. فمن الواجبات والتكاليف الشخصيّة الشائعة مثل الصّلاة والصّوم وما هو معتبرٌ فيها كمقدّمة لازمة، إلى الواجبات الماليّة والإنفاقات والحجّ، وإلى التكاليف والوظائف الاجتماعيّة المهمّة، والواجبات التي يُشترط في أدائها بذل الروح والأعزّة والإعراض عن مظاهر وزخارف الحياة، كُلُّها غير منسجمةٍ وغير متلائمةٍ مع الطبع البشريّ الذي وعلى الرغم من اهتمامه وتعوّده على العمل والتقدّم، إلّا أَنَّهُ ميّالٌ إلى اختيار الأسهل وطلب الرّاحة أيضاً.

(1) راجع: «الكافي»، للشيخ الكلينيّ رَحِمَهُ اللهُ، ج2، ص 91، باب الصّبر، ح15.

وهذا الوضع هو نفسُهُ في جميع القوانين - سواء السماويّة أم البشريّة، الصحيحة أم الفاسدة - على حدٍّ سواء.

أساساً، على الرغم من أنّ القانون نفسه ضرورةٌ حتميّة للبشر لا يمكن اجتنابها، ولهذا السبب أيضاً يقع مورداً لقبولهم به، إلّا أنَّهُ وبشكلٍ عامّ لم يكن أبداً أمراً طبيعيّاً ومُستساغاً وحلواً بالنسبة لهم.

وليست القوانينُ [الوضعيّة] المتعارفة في العالم، حتّى تلك القوانين التي تكون نتائجها الواضحة والبيّنة معروفةً للجميع، والتي يعرف الجميع عواقب التخلّف عنها، مثل: «قوانين وإشارات السير والمرور»، بخارجةٍ عن هذه القاعدة الكلّيّة أيضاً.

وعلى الرغم من أنَّ آلاف الحوادث الدمويّة والمؤسفة تنجم عن المخالفة والإهمال لهذه القوانين - وهذا حاصلٌ على مرأىً من أكثر الناس - إلّا أنّه قلّما يحدث أن يتوقّف راكبُ سيّارةٍ خلف الضّوء الأحمر، أو أن لا يستخدم طريقاً مُختصراً بسبب إشارةٍ سيرٍ تمنعه من ذلك، دون أن يشعر بالانزعاج والتأسّف لذلك، وعلى هذا القياس سائر القوانين الأخرى.

والتكاليف الدينيّة، رغم أنَّها شُرّعت على أساس الفطرة الأصيلة للإنسان - يعني أنَّها جُعلت ومن دون استثناء طبق حاجاته الواقعيّة - وهي في الحقيقة وسيلةٌ وأداةٌ لنيل تكامله وتعاليه، إلّا أنَّها على المستوى العمليّ تقترن إلى حدٍّ ما بالصعوبة والمتاعب.

الصلاة - مثلاً - ، هي صرفٌ لبضع دقائق من الوقت، بالإضافة إلى التخلّي عن عمل أو مشغلةٍ ضروريّة أو غير ضروريّة، وتأمينٌ لمقدّمات لازمة، وتوفيرٌ لملابس ومكان بشروط خاصّة، ونحو

ذلك... وكلّ هذه الأمور على خلاف الطّبع والميل النفسانيّ.

وفي أثناء الصلاة، المحافظةُ على توجّهك إلى هذا العمل الّذي تشتغل به، وأن يكون القلب حاضراً إلى جانبك، أي: «حضور القلب»، والحفاظ على الفكر والذهن من التشتّت والاشتغال بغير الله ﷻ، وطرد كُلّ الواردات والخواطر، وإغلاق باب الروح في وجه أيّ فكرٍ خارجيٍّ، هي بمثابة الشرط اللازم لكمال الصلاة وتحقّق آثارها، ولهذا هي عملٌ مليءٌ بالمشقّة ومستلزمٌ لصرف الجهد والبذل الكثيرين.

الصّوم أيضاً، ساعاتٌ متتاليةٌ من عدم الأكل والشرب، وتحمّل الجوع والعطش، ومجاهدة شهوة الطعام، وتجاهل دوافع الشراهة والدوافع الجنسيّة، وهذا عملٌ شاقّ ويتطلّب مقاومةً.

فعلى الرغم من القدرة على سدّ الجوع، والاستمتاع والالتذاذ بأكل وشرب الأمور المُستساغة، فإنّ فرض الجوع والعطش الاختياريّ على النفس، والبقاء على معدة فارغة وشفاه جافّة في يوم صيفيّ حارّ حتّى المساء، يتطلّب استثماراً كافياً للإرادة والتصميم.

وهكذا الحجّ، فالمعاناة من السّفر والابتعاد عن الأهل والديار، والمداراة لمجموعةٍ من الغرباء، وصرف مبالغ من المال والعمر، والتي هي من لوازم الحجّ - على ألّا يترافق ذلك مع دوافع الربح وطلب السياحة، أي أن يكون هذا السّفر لحجّ بيت الله ﷻ فقط - فإنّ هذا عملٌ صعبٌ أيضاً.

وكذلك بالنسبة للحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، فإنّ بيان الصعوبات والآلام والمِحَن والدماء التي تعتصر

في القلوب أثناء أداء هذه الواجبات - والتي لا بُدَّ من فرضها وعدم إمكانيّة اجتنابها - أمرٌ زائدٌ ويُعتبر بمثابة توضيح الواضحات.

من الواضح أنّ الجهر بكلمة الحقّ - والتي هي أكثر الأشياء كُرهاً ومرارةً على أسماع وأذواق أهل الباطل والفساد - في وجه السلطان الظالم الشّاهر للسيف والرافع للسّوط بيده، أو الوقوف أمام الذئاب المفترسة التي يلمع من عيونها ومن سيوفها البرقُ الّذي ينفذ إلى أعماق قلوب وأرواح الناظرين، أو الوقوف في مقابل موجة فساد وانحراف أمّةٍ أو طبقةٍ أو الإنسانيّة جمعاء، لهو من أصعب الأعمال وأكثرها خطراً وتهديداً.

وهكذا هو الحال بالنسبة للواجبات والتكاليف الإسلاميّة الأخرى، فكلّها مصحوبةٌ بالآلام والمِحَنِ والمشقّات، وفي نفس الوقت، كلّها وبلا استثناء متضمّنةٌ لأكثر الموادّ فائدةً وضرورةً ولزوماً لصلاح البشريّة وسعادتها ايضاً.

بالطّبع، بالنسبة لأولئك الّذين يعرفون الطريق الصحيح، وذاقوا لذّة السير في أيّ طريقٍ صعب من أجل الله ﷻ والهدف المقدّس والأسمى للإنسانيّة، كلّ هذه المصاعب ممتعةٌ وقابلةٌ للتحمّل.

نفسُ هذه الصّلاة حلوةٌ جدّاً بالنسبة لرجال الله والّذين ذاقوا لذّة وحلاوة مناجاته وذكره ﷻ. فقد كان النبيّ الأكرم ﷺ عندما يقترب وقت الصلاة، يُصبح شديدَ الشوق والتلهّف بحيث يقول لبلال: «**أَرِحْنَا يَا بِلَال**»[1].

(1) راجع: «بحار الأنوار»، للعلاّمة المجلسيّ رحمه الله، ج79، ص193، كتاب الصّلاة، أبواب فضلها وعللها وأنواعها وأوقاتها، الباب الأوّل، فضل الصّلاة وعقاب تاركها.

«أطلق نداءَ الآذان وهب قلوبنا وأرواحنا الراحة»

وهكذا الجهادُ في سبيل الله - وهو الفعل الصعبُ والمكروهُ عند الأفراد الكسالى وطلّاب العافية ومحبّي الرّاحة -، هو بالنسبة لأصحاب الروحيّة السليمة والقويّة كأمير المؤمنين عليه السلام موجبٌ للنشاط، ومصاعبُهُ ومِحَنُهُ مصدرٌ للمزيد من القوّة والثبات، بحيث إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام نفسه يصف هذه الحالة الروحيّة الرائعة والمدهشة في خطبةٍ له في «نهج البلاغة» فيقول:

«... وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً وَمُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ ...»[1].

ولكن على كلّ حال، بشكل عامّ توجد [في الجهاد] هذه الصعوبة والمشاقّ، وبالنسبة لأصحاب الروحيّة الضعيفة وأولئك الّذين لا يملكون الاستعدادات اللازمة، توجد هناك مرارةٌ وبؤسٌ أيضاً.

الآن، ما الّذي ينبغي فعلُهُ في مواجهة هذه الصعوبة وهذه المشقّة الموجودة في التكاليف الدينيّة أحياناً؟ هل لأنَّ أداء الصّلاة، وتحصيل حضور القلب فيها، وتقييده ومنعه من التشتّت والتجوال في كلِّ مكان، أمرٌ صعبٌ، وكذلك الصّوم والجهاد والحجّ والإنفاق والأمر بالمعروف وسائر التكاليف الاجتماعيّة المهمّة التي تتلازم مع التّعب والمشقّة؛ فنترك العمل بها جميعاً؟ وهل نعمل بحسب

(1) راجع: «نهج البلاغة»، للشريف الرضيّ رحمه الله، الخطبة: 56، ص: 91-92.

ميل القلب والأهواء والشهوات وروحيّة طلب الرّاحة والاستسهال للأمور؟

هنا يقول لنا الإسلام: لا! بل يجب الصّبر... الصّبر على الطاعة... تجب المقاومةُ في مواجهة تلك الوساوس التي تزيل القلبَ أثناء الصّلاة عن سجّادتها، وتخرجُهُ من المحراب والمسجد، وتشغلُهُ وتلهيه بمئات المشاغل التي تُخلي الصّلاة من الروح وتخرجها من حالة الحضور. يجب الصّبر حتّى تصل الصّلاة إلى كمالها وتُثمر ثمرتها.

يجب الصّبر: يعني مواجهة تلك الأهواء الشديدة التي تحرّك الإنسانَ نحو تناول الطعام والتلذّذ في يومٍ حارٍّ من أيّام شهر رمضان.

يجب الصّبر: يعني في ساحة المواجهة مع العدوّ، حيث يظهر الخطرُ على صورته الواقعيّة والجدّيّة، وحيث يندفع الموتُ الأحمرُ بسرعةٍ نحو الإنسان، وتتجسّم لذّات الحياة وحلاوتها، وذكريات الأبناء والأعزّة في الذهن، ووجوه الأحبّة في العين، وحيث تصدُّهُ المشاغلُ المادّيّةُ والمنافعُ على أنواعها وتسحبه نحوها، وتُزلزل خطوته وتُضعف إرادته، تجب المقاومة في مقابل جميع هذه الأمور، وإبعاد جميع معوّقات التقدّم والانتصار عن الطريق.

يجب الصّبر: يعني أن لا نسمح للخوف من بريق نظرات الظالم الحادّة والغاضبة، والذي جرّ فسادُهُ وطغيانُهُ الأمّةَ إلى الفساد والانحطاط، أن يتسلّل إلى القلوب. بل لا بدّ من جعل الاستياء والغضب والاعتراض عليه أمراً لازماً وضروريّاً عند الجميع، وأن يكون إلقاءُ سطل فضائحه من على سطح عالٍ وظيفةً إنسانيّة.

يجب الصّبر: يعني في مواجهة إغواء الشيطان الّذي يظهر بألف لونٍ وخدعة؛ ليربط ويمنع يدَ الإنسان عن السخاء والإنفاق، ويمنعه من خلال تذكيره باحتياجاته الفرديّة وإثارة روحيّة النفعيّة وطلب الزيادة المادّيّة عن أداء واجباته الماليّة، فيعتبر أنَّ إضاءة منزله أولى من إشعال شمعة في المسجد! يجب الحؤول دون تأثير ذلك، والمبادرة إلى أداء الواجبات الماليّة.

نعم، يجب الصّبر على هذه الطاعات وعلى أداء هذه الأوامر. يعني يجب المقاومة في مقابل الدوافع والوسوسات الشرّيرة والصالحة، وهذا يكتسب معنى وشكلاً خاصّين يتناسبان مع العمل الّذي يجب الصّبر عليه. تارةً تكون المقاومة من خلال الثبات في ميدان الحرب مع العدوّ. وأُخرى تكون من خلال الاستقامة في ساحة جهاد النفس. وثالثةً تكون بعدم الاعتناء بوساوس الفقر وضيق ذات اليد، وغير ذلك ...

فإذاً، الصّبر مقاومةٌ في كلّ مكان، ولا يعني في أيّ مكان الانهزام وتكبيل الأيدي والاستسلام للواقع وتحمّل الذلّة والهوان.

الصّبر على الطاعة في حياة الأئمّة عليهم السلام

من جملة الخصال النموذجيّة التي يتمّ التركيز عليها في الزيارات التي يُزار بها الأئمّة عليهم السلام، خصلة: «**الصّبر**».

«**صَبَرْتَ وَاحْتَسَبْتَ**»[1]، أي أنَّك صبرت، وفعلت هذا الأمر لأجل الله تعالى، ورغبةً في الثواب الإلهيّ.

(1) راجع: «الكافي»، للشيخ الكلينيّ رحمه الله، ج4، ص 569، باب ما يُقال عند قبر أمير المؤمنين عليه السلام، ح1.

يعني أنَّك قبلت حملَ عبء الأمانة، وأوصلتها إلى المقصد مع كلّ الصعوبات والمشقّات.

حقّاً، كان قبول مسؤوليّة هداية الناس، وبيان الحقائق المكتومة، ومحاربة الظلم والفساد والطغيان في زمن الأئمّة عليهم السلام - وكما هو الحال دائماً - عملاً صعباً للغاية، ويتطلّب صبراً ومقاومةً.

ويقيناً، إذا كان صبرُ الإمام عليه السلام يعني أنّه سيحزن دائماً للوضع السيّئ في زمانه، ويحترق قلبُهُ للإسلام والمسلمين، ويجلس في المنزل يتجرّع الغصّة دون أن يخطو خطوةً في طريق القضاء على المساوئ وتغيير وضع الحركة الاجتماعيّة في الاتّجاه الصحيح، فإنَّ هذا لم يكُن ليُحسب من مفاخر وفضائل ذلك الإمام عليه السلام؛ لأنَّ هذا الفعل يتأتّى من الجميع، وبالطّبع، من الأشخاص الضعفاء وغير الملتزمين بشكل أكبر.

إنّ الفضيلةَ والفخرَ اللذان يمكن أن يتكرّر ذكرهما في نصوص متون الزيارات - والتي هي درسٌ مُلهمٌ وجزءٌ بارزٌ من سيرة حياة الإمام عليه السلام - هما الصّبر على الطّاعة وأداء التكليف. الصّبر على أداء وظيفةٍ عجز الكثير من الناس عن تحمّلها ونيل فخرها.

نظرةٌ إلى القرآن[1]

ليس عبثاً أن نذكر أنَّ من بين عشرات الآيات الواردة في القرآن الكريم حول الصّبر والصابرين، هناك عددٌ منها يبيّن هذا النوع من

(1) استُخدمت اشتقاقات كلمة «الصّبر» في القرآن الكريم أكثر من (70) مرّة. وقد تمّ الاستنتاج والاستفادة منها في بحثٍ قرآنيٍّ مستقلّ.

الصّبر، أي: «**الصّبر على الطاعة**».

- مثلاً:

﴿... إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا ...﴾[1].

في هذه الآية، الصّبر ليس إلّا المقاومة والثبات في مقابل العوامل المُزعجة التي تمنع المجاهد من مواجهة العدوّ في ساحة المعركة. وهذا المعنى واضح جدّاً في الآية.

الصّابرون الّذين أُشير إليهم في هذه الآية، هم الذين لا تُثنيهم التهديدات، ولا بوارق سيوف ونظرات العدوّ، ولا وجه الموت الغاضب، ولا ذكر الأحبّة والأبناء وذكرى الحياة المريحة، عن أداء واجب الجهاد والقتال، ولا تفتّ في عزمهم وتصميمهم على طاعة الله ﷻ.

آيةٌ أخرى:

﴿... رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

في هذه الآية، الحديثُ عن مجموعةٍ مؤمنةٍ مضت نحو ميدان القتال؛ لأجل أداء واجبٍ، وقد أعدّت نفسها؛ لأجل مواجهة عدوٍّ قويٍّ.

هؤلاء يسألون اللهَ ﷻ أن يغرسَ فيهم روحَ المقاومة والثبات في

(1) سورة «الأنفال» المباركة، جزءٌ من الآية: (65).

(2) سورة «البقرة» المباركة، جزءٌ من الآية: (250).

وجه الموانع، وأن يمتّعهم بالنتيجة والثمرة المرضية لذلك، ألا وهي الانتصار على العدوّ.

أيضاً، معنى الصّبر في هذه الآية واضحٌ تماماً، ومتطابقٌ مع الصّبر على الطاعة.

ومن هذا القبيل، توجد عدّة آيات أخرى، لم نبحث حولها بشكل تفصيليّ ضمن بحثنا الحالي؛ فإنَّ ذلك موكولٌ إلى بحثٍ قرآنيٍّ مستقلّ.

2. الصّبر عن المعصية

بطبيعة الحال، توجد في الإنسان ميولٌ وانجذابات تجذبه نحو أفعال، وتمنعه عن أخرى. وهي في الحقيقة وسائل تسبّب حركة الإنسان وجهده في مراحل حياته. هذه الميول تسمّى بـ «الغرائز». حبّ النفس، حبّ الأبناء، حبّ المال، السعي وراء القدرة، الميول الجنسيّة، وعشرات عوامل الجذب الأخرى هي أمثلةٌ بارزة للغرائز.

بماذا يحكم الإسلام بالنسبة للغرائز الإنسانيّة؟ وكيف يحدّد للإنسان الموقف الذي يلزم عليه اتّخاذه في مواجهتها؟

فهل يجب الاستسلام والخضوع لها دون قيدٍ أو شرط؟ أم يجب قمعها وكبحها وتعطيلها بشكلٍ كلّيٍّ من خلال الرياضات الشاقّة؟

بنظر الإسلام، لا تعتبر أيّ من هاتين الطريقتين علاجاً صحيحاً. فمن ناحيةٍ، لا يتجاهل الإسلامُ الغرائز الإنسانيّة بأيِّ شكلٍ من الأشكال، ويقرّها كحقيقةٍ واقعيّة غير قابلة للاجتناب، بل يعتبرها مفيدةً. ومن ناحيةٍ أخرى، يسدّ طريقَ طغيانها وتعدّيها وانحرافها،

ويضع حـدوداً لتمرّدها وزيغها من خلال تدابير مؤثّرة وإجـراءات واقعيّة.

في الواقع، كما أنّ أصل ومبدأ وجـود الغرائز في الإنسان هو وسيلة لاستمرار الحياة، ولإشباع حاجات حياته الأساسيّة، كذلك فإنّ تمرّدها وطغيانها أو انحرافها وزيغها يتسبّب في تدمير وبؤس وفوضى عمله وحياته أيضاً.

فمثلما لا يمكن أن تدوم حياةُ الإنسان دون غريزة حبّ الذات «حبّ النفس»، فإنّ ازديادها وطغيانها الجامح يجعل الحياة صعبةً وأحياناً مستحيلةً بالنسبة له أيضاً. والغرائز الأخرى على هذا القياس.

والصّبر عن المعصية - والـذي هو أحد الأنـواع الثلاثة للصّبر - معناه المقاومة في مقابل نار طغيان الغرائز أو انحرافها؛ لأنّ المعصية والذنب ينشأن من هذا الطغيان والانحراف.

والإنسان يميل بشكل طبيعيّ نحو تأمين وسائل الحياة واحتياجاته الأساسيّة، وبما أنّ هـذا العمل غير ممكن من دون مال وثروة، فإنّ تحصيلهما يُعتبرُ تجلٍّ ومظهراً لإحدى غرائزه.

والإسلام - والـذي هو مدرسة الإنسانيّة وطريق حياة الإنسان - يصوّب هـذا العمل ويُمضيه أيضاً. وبالطّبع، يضع ويقـرّر طرقاً وأساليب له؛ لأجل تنظيم المجتمع بشكل صحيح، لكنّه لا يمنع أبداً من السعي لتحصيل أمور المعاش.

مع كُـلِّ هـذا، في الكثير من الحالات تتجاوز هـذه الغريزةُ حدَّ الاعتـدال، حيث يتجذّر «حـبُّ المال» واكتنازُهُ في نفس الإنسان كمرضٍ مزمنٍ، ونتيجةً لذلك، بدل أن يكون المالُ بالنسبة له وسيلةً

لتأمين الاحتياجات، يُصبح هدفاً عزيزاً أو وسيلةً لتحقيق مآرب غير إنسانيّة، أو أداةً للتفاخر، وكلّ هذا ممنوعٌ في الإسلام. هنا يأمرُ الإسلامُ أتباعه بالصّبر، أي يأمرهم بالمقاومة في مقابل طغيان وانحراف هذه الغريزة.

إنّ طغيان غريزة «حبّ المال» تقود الإنسانَ إلى الربا والاحتكار وكنز الثروة والمال، وانحراف هذه الغريزة يقوده إلى معاملات وتصرّفات خاطئة، والصّبر يعني المقاومة في مقابل الدافع الباعث على الفساد الذي يسبّب كلّ هذا الأمور.

يمكن لنا طرح مثالٍ آخر حول «السعي وراء القدرة»:

يميل الإنسان بشكلٍ طبيعيٍّ لأن يكون مقتدراً، وبالتأكيد، أولئك الذين قبلوا الضعف والهوان والخضوع والخنوع كعنصرٍ من عناصر وجودهم، يجب أن يصدّقوا ويقبلوا بأنّهم قد انحرفوا عن فطرتهم وطبيعتهم البشريّة.

في هذه الحالة أيضاً، طبّق الإسلامُ أسلوبه المُعتاد في جميع الغرائز:

فمن جهةٍ، السعي للحصول على القدرة جائزٌ ومباحٌ، وفي بعض الظروف يكون واجباً ولازماً. نعم، هناك حيث يوجد إحقاقٌ لحقّ، أو أداءٌ لتكليف اجتماعيّ مهمّ، أو إيصالٌ لحقوقٍ مسلوبة إلى أصحابها، أو تنفيذٌ للأحكام والحدود والأوامر الإلهيّة، تكون القدرة لازمةً وضروريّةً، والإسلام جعلَ السعي وراء القدرة فريضة لازمةً وواجبةً على الجميع.

ومن جهةٍ أخرى، فقد أُغلقت طريقُ هذه الغريزة نحو التعدّي

والطغيان. يعني عندما يكون السعيُ وراء القدرة باعثاً على الظلم والتنمّر والاستبداد والجريمة، فإنّه يُعتبر فعلاً غير مشروع وممنوع.

قد يحقّق الارتباط بصاحب قدرةٍ ظالم أو بجهاز مجرم الكثيرَ من القدرة لطالبها، لكنّ الإسلام لا يُرخّص بمثل هذا أبداً؛ لأنّ الانضمام إلى ظالمٍ يساعدُ على إدامة الظلم. كما أنَّ القدرة المكتسبة من خلال هذا الطريق تعادل ارتكاب جريمة أيضاً.

هنا يواجه حكمُ الإسلام والقرآن طغيانَ الغريزة وانحرافها، ويغلق الطريق أمامها، ويأمر المسلم بمقاومة هذا الدافع للسعي وراء القدرة، والذي هو دافعٌ باعثٌ على الشرّ والفساد، وعدم الخضوع له، يعني: الصّبر عن المعصية.

ويمكن البحث عن أمثلة أخرى في الغريزة الجنسيّة وغريزة الحبّ للشهرة وغريزة حبّ الحياة وما إلى ذلك، ومن خلال التفكير فيها يمكن إدراك العديد من القضايا الفرديّة والاجتماعيّة المهمّة.

أهمّيّة الصّبر عن المعصية

في ضوء هذا التوضيح المختصر، وبالاستلهام من الروايات والتعاليم الإسلاميّة التي عادةً ما تكون زاخرةً بالمعارف الاجتماعيّة، تُستكشف الأهمّيّة والفضيلة التي يحظى بها الصّبر عن المعاصي وطغيان الغرائز.

ففي عدّة روايات قصيرة وردت كُلٌّ واحدةٍ منها في وضع خاصّ بصورة درس بنّاء للمسلمين العاملين بجدّ في زمن الأئمّة عليهم السلام، تمّ التأكيد على هذا النوع من الصّبر أكثر، وتمّ تقديمه على أنّه يمتلك

فضيلةً أعلى؛ ربّما لأنّ طيّ طريق النوع الأوّل من الصّبر - أي: «**الصّبر على الطّاعة**» - متلازمٌ مع نوع من الرغبة الطبيعيّة في الإنسان، وهي الرغبة في الحركة والسعي. في حين أنَّ عدم الانحراف وعدم الاستسلام للموانع التي هي جميعها على وفق الجاذبيّات والميول الطبيعيّة للبشر - أي: النوع الثاني من أنواع الصّبر وهو: «**الصّبر عن المعصية**» - ليس أنَّهُ لا يحظى بدعم الانجذاب الغريزيّ والطبيعيّ فحسب، بل يقع في الجهة المعاكسة تماماً لهذه الجاذبيّة.

فإذاً، الصّبر من النوع الأوّل، في نفس الوقت الذي هو من جهةٍ عبارة عن المقاومة في مواجهة نوع من الانجذاب الطبيعيّ[1] - أي طلب الرّاحة واستسهال الأمور - إلّا أنَّهُ يترافق من جهةٍ أخرى مع نوعٍ آخر من الجاذبيّة - وهي وإن كانت ضعيفةً إلّا أنَّها طبيعيّة أيضاً -، ولكن الصّبر في النوع الثاني يُخالف الميول الطبيعيّة والجاذبيّات النفسيّة ويعارضها تماماً، ولذا فإنّ المقاومة في هذا النوع أكثر صعوبةً بالطّبع، وفضيلتها أكبر.

من جهةٍ أخرى، كان لـ «**الصّبر عن المعصية**» الدور الحاسم والأكثر بروزاً في الأحداث الاجتماعيّة، وكان تأثيره فيها أكثر وضوحاً. وهذا يمكنه أن يكون دليلاً آخر لترجيح هذا النوع من الصّبر.

(1) المراد أنَّ هذه الجاذبيّات هي جزءٌ من البنية الأصليّة للإنسان. هذا على الرغم من أنّ طغيانها وانحرافها أمرٌ غير طبيعيّ وغير متوازن، ومقاومة الإنسان تكون في مواجهة هذا الطغيان والانحراف.

نموذجٌ من التاريخ

كنموذجٍ على ذلك، نقارن بين وجهين لشخصيّتين معروفتين في تاريخ الإسلام. أحدهما وجهٌ منوّرٌ، مليءٌ بالفخر، وباعثٌ على الحركة والثورة. والآخر وجهٌ مكروهٌ ومحتقرٌ ومنبوذٌ.

يتعلّق هذان الوجهان بشخصين كانا في وضع مشابه ومماثل تماماً، ويمكن القول إنّهما وصلا معاً إلى نفس مفترق الطريق، لكن في الممارسة العمليّة، اتّخذ كلُّ واحدٍ منهما قراراً مغايراً لقرار الآخر، واختار طريقاً مختلفاً.

فقد أصبح أحدهما من أعظم وأشرف الشخصيّات والوجوه الإسلاميّة؛ بسبب المسار الذي سلكه، ودخل الآخر باختياره في زمرة المنبوذين والملعونين في التاريخ.

أحدُ هذين الشخصين هو «عمر بن سعد»، قائد القوّات الأمويّة لقمع نهضة الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام، والآخر هو «الحرّ بن يزيد الرياحيّ» قائد قسمٍ من نفس هذا الجيش، ورائد طليعته الذي اتّخذ الخطوة الأولى في مواجهة القوى الثوريّة.

انطلق هذا الشخصان معاً، حيث كانت قوّة حاكم زمانهما وقدرته مهدّدة من قبل قوّة ثوريّة، وكانت نيران ثورةٍ تحرّريّة في الحجاز قد اتّقدت شرارتها من تحت الرماد، وهي الآن على وشك الاشتعال في العراق؛ حيث قام الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام - مستنداً إلى الأحكام والمقرّرات والواجبات الإسلاميّة، ومتّبعاً لشعورٍ كبيرٍ بالمسؤوليّة - وأطلق نهضةً وحركةً ثوريّة عظيمة؛ هادفاً إلى

تقديم «**درسٍ عمليٍّ لأحد دروس الإسلام الأساسيّة**»[1] ضدّ الإجراءات القسريّة للحكومة الأمويّة والنظام الفاسد والمنحطّ، المتسلّط على المجتمع.

مثلُ هذه الخطوة - وقبل كُلِّ شيءٍ - من شأنها أن تخلق خطراً وتهديداً لجهاز الخلافة، ولذا فإنّه سيعمل بشكلٍ قهريٍّ وطبيعيٍّ على تعبئة وتحريك جميع إمكاناته وقواه ضدّها. وقد كان هذان الشخصان - عمر بن سعد والحرّ بن يزيد - جزءاً من الإمكانيّات الهائلة لهذا النظام القمعيّ ضدّ هذه الحركة الثوريّة ومؤسّسها وباعثها الحسين بن عليّ عليه السلام.

فإذاً في البداية، ظهر كلا الرجلين كشخصيّتين أساسيّتين في مشهدٍ كان الممثّل الواقعيّ فيه هو الخليفة الغاصب يزيد بن معاوية. فلقد عيّنهما ونصّبهما كَيَدٍ وذراعٍ لتنفيذ إرادته وأمره[2]، لكنّهما انساقا بدورهما نحو هذا المشهد؛ بسبب أنانيّتهما ونفعيّتهما، وإشباعاً لغرائزهما الحيوانيّة أيضاً. فقد توجّه «عمر

(1) تحليلُ وشرحُ واقعة عاشوراء، وبيان الهدف الرئيسيّ والتوجّه الاجتماعيّ لنهضة وقيام الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام موكولٌ إلى خطاب آخر من هذه السلسلة. *

* إشارة إلى الخطابات التي أُلقيت في تلك الليالي من عامي 1351 هـ ش و 1352 هـ ش، الموافقين لـ 1973م و 1974م، في «**مسجد الكرامة**» في «**مشهد المقدّسة**». ولم تُتح ظروف النضال حينها إمكانيّة نشر هذه الخطابات. وقد نُشرت خطابات القائد المعظّم دام ظله حول تحليل النهضة الحسينيّة بهمّة مؤسّسة الثورة الإسلاميّة للثقافة والأبحاث، في كتاب تحت عنوان: «**دو امام مجاهد**»، والذي عُرّب ونُشر من قبل المؤسّسة نفسها، تحت عنوان: «**الحسنان عليهما السلام إمامان مُجاهدان**». (**الناشر**)

(2) في خطبة السيّدة فاطمة الصغرى بنت الإمام الحسين عليه السلام في الكوفة إشارةٌ قويّة إلى هذه الحقيقة.

بن سعد» إلى كربلاء، يحرّكه هوسُهُ ورغبتُهُ في السلطة والحكم؛ فبالنسبة له - وهو الذي لم يكن صاحب إيمان واعٍ بالدّين - كانت ولاية «الرّي» التي أخذ وعداً بها من جانب ممثّل الخليفة، أثمن وأعزّ بكثير من يزيد ومن تنفيذ أمره. وكان الحرّ بن يزيد الرياحيّ قد انطلق في هذا الطريق بحثاً عن شيءٍ كهذا أيضاً.

أيضاً، كان كلا الشخصين يعرفان أنّ ما سيرتكبانه ذنبٌ ومعصيةٌ كُبرى، إلّا أنَّ طغيان الميول البشريّة وغريزة حبّ الجاه والمنصب والسُلطة وعبادة الأنا، لم تترك لهما مجالاً للتفكير، وجرّتهما كليهما إلى الطريق الذي ينتهي بهما لأن يكونا أحقر مفترسي ومتوحّشي البشريّة. لقد كان كلاهما يقفان عند مفترق طريقين حسّاسين: طريق الانقياد نحو الميول النفسيّة المتمثّلة بغريزة حبّ القدرة والسلطة وطلب الجاه، وطريقٌ أخر نحو أداء التكليف الإسلاميّ، وهو عبارة عن الالتحاق بالقوى المنادية بالحقّ والمُطالِبة به بقيادة الإمام الحسين عليه السلام.

ما كان يمكن أن ينجيهما كليهما في تلك اللحظات الحسّاسة والحاسمة هو «الصّبر». الصّبر في مواجهة سحب وجذب الميول والرغبات المهلكة لنفس الإنسان، والمقاومة في وجه هذه القوّة القاصمة العجيبة، والصّبر عن المعصية والخطيئة.

لم يستطع «عمر بن سعد» أن يصبر عند هذه النقطة الحسّاسة؛ حيث لم يقدر على مقاومة هذا الدّافع الباعث على الشرّ والفساد. فقد طوّق عُنُقَهُ حَبْلُ ورَسَنُ حبّ المقام والشأن، وساقه نحو جهنّم، ولم يستطع ذلك الضعيف خائرُ القوى - الذي ربّما كان يبدو في الظاهر قويّاً للغاية ومقتدراً أيضاً - مقاومةَ ضعفه وعدم قدرته،

وعجز عن التغلّب على ذلك وعدم الذهاب إلى الهاوية. وبالنتيجة غلبه عدمُ صبره، وانهزم أمام دافع حبّ المقام، وسقط إلى أعماق جهنّم؛ بسبب انجذابه لطغيان هذه الغريزة القاتلة والمميتة.

وكذلك وصل «الحرّ بن يزيد» إلى نفس هذه النقطة أيضاً، وإلى مفترق الطرق نفسه. فلو أنَّهُ استسلم هو الآخر لميوله النفسيّة، وقام بالمسؤوليّة التي أوكلها إليه جهازُ الخلافة الحاكم حتّى النهاية، ولم يُنصت إلى نداء عقله الموقظ، وصدّق بعُذر كونه عبداً مأموراً ومعذوراً، فمن دون أدنى شكّ كان الطريقُ ممهَّداً أمامه لنيل الترقية والمقام والمنصب. وإن لم تكن مسألة مُلْكِ الرّي مطروحةً بالنسبة إليه أيضاً، إلّا أنَّ مُلْكَ مكان آخر كان أمراً مُسلَّماً ومؤكّداً. وبحكم كونه بَشَراً، فإنَّ أطواق الحرص والهوى، والدوافع التي تولّد الفساد والانحطاط، كانت تطوّق عنقه، وتسوقه بتهوّر إلى الجحيم. وقد جرّته وسحبته إلى حدودها، أي إلى الخطّ الفاصل بين معسكري كربلاء. هناك حيث واجه جنّةً نقداً، أي عند المخيّم الحسينيّ، ومركز فوران وغليان أصالة الإسلام، وتجلّي عظمة روح الإنسان، وقاعدة الإسلام الصحيح. في مقابل جحيم وجهنّم نقداً، أي عند المعسكر اليزيديّ، مظهر الانحطاط والانحلال والدناءة البشريّة، وساحة الرياء والكذب والخداع، وقلعة الجاهليّة التي فُرضت على المجتمع باسم الإسلام. لقد كان هناك حيث وقف المعسكران وجهاً لوجه وصدراً لصدر.

نعم، لقد جاءت به الميول الباعثة على الانحطاط إلى ذلك المكان، ولكن، فجأةً! ظهرت قوّة بطوليّة، وبرزت صحوةٌ في محلّها المناسب، واندفعت لمساعدته ونجدته. وفي لحظة سقوطه، استطاعت بهزّة وحركةٍ واحدةٍ أن تقطع طوق الأهواء والهوس الذي

كان يطوّق عنقه قطعةً قطعة. وبواسطة المقاومة التي مارسها ضدّ هذه الجاذبيّة الشديدة، وبالصّبر الذي تحمّله في مقابل هذه المعصية الكبيرة المتمثّلة بمحاربة الحقّ المتجسّد لصالح الباطل المتجسّد، استطاع إنقاذَ نفسه، وقفز بها خارجَ دائرة جهنّم إلى فَلَكِ وعالم الجنّة.

في هذه القصّة المليئة بالعِبَرِ للمتعمّقين بأحداث التاريخ، يتبيّن ويتّضح جيّداً الدور المهمّ للغاية لهذا الفرع من الصّبر - **الصّبر عن المعصية والخطيئة** - في تشكيل الجبهات العظيمة للحقّ وجبهات الباطل، والتي بدورها تمثّل التفسير النهائيّ والواقعيّ لتاريخ البشريّة، والتي تُعيّن خاتمة ومصير مجتمع من المجتمعات.

نماذج أُخرى

للاطّلاع والبحث حول نماذج هذا الفرع من الصّبر، ينبغي استحضار أشكال مختلفة من الانحرافات والذنوب الكبيرة في الذهن؛ لنرى الدور المهمّ جدّاً للصّبر في كلٍّ منها.

فالقبضة المشدودة لتنهال على رأس مظلومٍ دون مانعٍ أو رادعٍ، موردٌ من موارد الصّبر. ودوافعُ الغضب والغطرسة والتكبّر وأذيّة الآخرين، عواملُ جذبٍ قويّة جدّاً، تسحب هذه القبضة لتنهال على رأس هذا البريء.

والصّبر هنا معناه: المقاومة في مقابل هذه العوامل الجاذبة، وعدم ارتكاب هذا الانتهاك والتعدّي الشخصيّ.

والمالُ والثروةُ المادّيّةُ الكبيرةُ المجعولةُ في متناول يد شخصٍ

ما، بحيث يستطيعُ من خلال العبور فوق جسر الجريمة والخطيئة أن يجعلها تتدفّق إلى جيبه، موردٌ آخر [من موارد الصّبر].

وجاذبيّة طلب الثروة والسعي وراءها - والذي هو دافعٌ إفراطيٌّ وانحرافيّ - تسحب وتشدّ هذا الشخص نحو تلك الجريمة والخطيئة.

والصّبر هنا يعني: مقاومة هذا الدّافع، وغضّ النظر عن الفائدة التي تأتي على حساب المعصية، وبالتّالي عدم ارتكاب هذه المعصية.

كذلك، فإنَّ الجاذبة الجنسيّة من أقوى عوامل الجذب؛ فهي مستنقعٌ يسحب ويبتلع حتّى الأقوياء والأبطال من أصحاب الهامات العظيمة الضخمة!

وبسبب هذه الجاذبيّة الساحرة، كانت دائماً وسيلةً مناسبةً جدّاً وسهلةً للغاية، استخدمها أعداءُ تعالي وترقّي البشريّة؛ لجرّ الأرواح المقاومة نحو الانحطاط والتسافل.

والصّبر في الموارد التي يكون فيها هذا الفعل الجنسيّ القذر والدنيء بمعنى: المقاومة في مقابل هذه الجاذبة القويّة، وعدم الاستسلام للمعصية التي تأتي من هذا الطريق.

والخوفُ والرهبةُ صفةٌ عامّة لأفراد بني البشر، وهي نتاجٌ لعدّة غرائز طبيعيّة أو غريزة أساسيّة في حدّ ذاتها، لكن في بعض الموارد، تلعب هذه الحالة الدور الأكثر أهمّيّة في إيجاد الحقارة والإذلال والعبوديّة وارتكاب الجرائم وخلق الفجائع.

وما أكثر الناس الضعفاء الذين وبسبب أنواع مختلفة من الخوف والرهبة - على حياتهم وأموالهم ومناصبهم وماء وجوههم وأولادهم

و ... - اقترفوا وانغمسوا في أسوأ الجرائم والموبقات، وأسقطوا أنفسهم فجأةً من ذروة الشخصيّة الإنسانيّة الشريفة، إلى مستوى «آلةٍ فعليّة دون إرادة».

والمقاومة في مقابل هذا الدافع الباعث على الشرّ والفساد مثالٌ آخر لـ «**الصّبر عن المعصية**» أيضاً.

نظرةٌ إلى الروايات

الآن، بهذه الخلفيّة، يمكنك التأمّل في الروايات الواردة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام حول هذا الفرع من الصّبر، وتعلّمها كدرسٍ مفيدٍ وملهمٍ.

الرواية الأولى:

«**الْأَصْبَغِ قَالَ: قَالَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: الصَّبْرُ صَبْرَانِ، صَبْرٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ حَسَنٌ جَمِيلٌ، وَأَحْسَنُ مِنْ ذَلِكَ الصَّبْرُ عِنْدَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَيْكَ ...**»[1].

فالأصبغ بن نباتة والذي هو من أصحاب عليٍّ عليه السلام يستنتج من قول الإمام عليه السلام أنَّ الصّبر نوعان، أحدهما الصّبر عند المصائب، وهو صبرٌ حسنٌ وجميلٌ. (**وسوف نذكر تقسيماً آخر حول هذا النوع في القسم الخاصّ بالصّبر عند المصيبة**)[2].

(1) راجع: «الكافي»، للشيخ الكلينيّ رحمه الله، ج2، ص 90، باب الصّبر، ح11.
(2) راجع الصفحة: 154 من هذا الكتاب.

الرواية الثانية:

«عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُنَالُ الْمُلْكُ فِيهِ إِلَّا بِالْقَتْلِ وَالتَّجَبُّرِ، وَلَا الْغِنَى إِلَّا بِالْغَصْبِ وَالْبُخْلِ، وَلَا الْمَحَبَّةُ إِلَّا بِاسْتِخْرَاجِ الدِّينِ وَاتِّبَاعِ الْهَوَى، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ فَصَبَرَ عَلَى الْفَقْرِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْغِنَى، وَصَبَرَ عَلَى الْبِغْضَةِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْمَحَبَّةِ، وَصَبَرَ عَلَى الذُّلِّ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْعِزِّ، آتَاهُ اللهُ ثَوَابَ خَمْسِينَ صِدِّيقاً مِمَّنْ صَدَّقَ بِي»[1].

هذه الرواية يرويها الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام عن نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يُخبر عن مستقبل الأمّة الإسلاميّة بقوله:

«**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ**»، أي: سيأتي زمانٌ على الأمّة الإسلاميّة.

«**لَا يُنَالُ الْمُلْكُ فِيهِ إِلَّا بِالْقَتْلِ وَالتَّجَبُّرِ**»: فلا يمكن الحصول على القدرة والسيطرة الحاكمة على عامّة الشعب إلّا بالقتل وسفك الدماء، ومن خلال استخدام القوّة والضغط فقط[2].

«**وَلَا الْغِنَى إِلَّا بِالْغَصْبِ وَالْبُخْلِ**»: فإنّهُ لن يتمّ توفير الثروة والرفاه الماليّ إلّا بغصب حقوق المظلومين، والتعدّي على الطبقات الضعيفة، واستغلال عامّة الناس، وامتهان البخل، والإمساك عن أداء الحقوق الماليّة، وعدم الاعتناء باحتياجات المحرومين وتجاهل تأمينها. أي أنّ المسار الطبيعيّ للمجتمع الإسلاميّ لن يكون على

(1) راجع: «الكافي»، للشيخ الكلينيّ رحمه الله، ج2، ص 91، باب الصّبر، ح12.

(2) سرعان ما شهد المسلمون صدق هذه النبوءة، وذلك من خلال ما شاهدوه من مجريات وأحداث صدر الإسلام، وفي سيرة حياة معاوية وابنه يزيد والوجوه الأخرى التي كانت قبلهما والتي جاءت بعدهما.

نحو بحيث يتمتّع الجميع بالثروة والرفاه المادّيّ، وأن يتمّ تأمين امتلاك المال والثروة من دون ظلمٍ واضطهاد في المجتمع، بل على العكس من ذلك، سيكون إثراءُ مجموعةٍ خاصّة مصحوباً بحرمان وظلم مجموعةٍ أخرى ...

وهذا تنبّؤٌ صريحٌ بظهور نظام طبقيّ في مجتمع المسلمين.

«**وَلَا الْمَحَبَّةُ إِلَّا بِاسْتِخْرَاجِ الدِّينِ وَاتِّبَاعِ الْهَوَى**»: فلا يعود من الممكن اكتساب المحبّة إلّا بإخراج وإبعاد روح الدين من الحياة والوجود، والخضوع لأمر الأهواء النفسيّة، أي من خلال التملّق والكذب والرياء والخداع والاستسلام للأهواء والهوس، وخداع الناس والتغرير بهم، والتستّر على العيوب التي يجب إبرازها والتعبير عنها بصوت عالٍ، وقلب الحقائق رأساً على عقب، ونسيان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، و ...، بهذه الطرق فقط يمكن جلب محبّة عامّة الناس للقادة الفاسدين.

فلو تمسّك شخصٌ بمسؤوليّاته الإسلاميّة، ولم يُطلق لسانه بالتملّق والأكاذيب، وأعلن صراحةً عن الانحرافات والمساوئ الموجودة في المجتمع، أو لدى طبقات المقتدرين، وبيّن الحقائق، ولم يخدع عامّة الناس بوعودٍ كاذبة وفارغة، ولم ينسجم مع الأوضاع السيّئة ويسعد بها، وكشف بكلماته المُرَّة - التي هي دواءٌ شافٍ لسخط عامّة الناس، وخنجرٌ يفري كبد الطبقات الظالمة - الموبقات والمساوئ، فإنَّهُ سيسقط من العيون ويُحرم من المحبّة.

وهذه الجملة المليئة بالمغزى إشارةٌ بليغة إلى تدنّي مستوى تفكير الناس وبصيرتهم، وسقوط القيم الإسلاميّة من معيار المجتمع

المنحطّ، وتحوّل وانقلاب الموازين والأحكام العامّة، وظهور التيّارات الخاطئة والمنحرفة في حياة المسلمين. ومن الواضح جدّاً أن ظهور مثل هذا الوضع في حياة الناس الذين بُني شكلُ ونظامُ حياتهم بدايةً على أساس القيم الأصليّة، والذين كان قطار مجتمعهم قد بدأ مسيره على سكّة الفكر والمنهج الإسلاميّ، لم يمكن ليكون إلّا بوسيلة وبواسطة أيدي المستبدّين الفاسدين، وبمخطّطاتهم وحساباتهم وأنشطتهم.

ولذلك، فإنّ هذه الجملة في معناها، هي أيضاً تنبّؤٌ جليٌّ وواضحٌ حول الأحداث السياسيّة الغاصبة وغير الإنسانيّة التي حصلت في تاريخ الإسلام.

أحياناً، كان النبيُّ ﷺ يُخبر عن مثل هذه الأيّام... وسرعان ما حلّت!

عندما كان الناس يحضرون عند أمير المؤمنين عليه السلام لم يكونوا يشاهدون في وجه هذا الإمام العظيم وأقواله وأفعاله سوى الجدّيّة والحسم مقابل التبجّح والتباهي بالمعاصي والانحرافات، وسوى إنزال سَوط الغضب والانتقام الإلهيّ على رأس العاصي والمنحرف وجسده. وكان أخوه عقيل يرى في يده حديدةً محماة، ويسمع منه كلام التأنيب والملامة مقابل طلبه منه مقداراً ضئيلاً من المال[1].

(1) يُشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذه الواقعة التي حصلت مع أخيه عقيل في الخطبة (224) من «نهج البلاغة»، للشريف الرضيّ رحمه الله، ص346 - 347، في كلام له عليه السلام يتبرأ من الظلم، فيقول: «... **وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً. وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الْأَلْوَانِ؛ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ. وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً**

عقيلُ هذا، أو أيّ أحدٍ آخر، عندما كانوا يذهبون إلى معاوية، كانوا يجدون لديه وجهاً بشوشاً، ويداً مبسوطةً، وأكياساً مفتوحةً، ومالاً وفيراً دون حساب! ومن الطبيعيّ حينئذٍ أن يُحبَّ الناسُ - الذين لم تكن مشاعرهم قد وقعت تحت تأثير المنطق والفكر الإسلاميّ الصحيح - معاويةَ ويأنسون به أكثر من عليّ عليه السلام.

لا ينبغي التصوّر أنّ معاوية لم يحظ بمحبّةٍ وشعبيّة بين الناس في زمانه، من سكّان الكوفة والمدينة المنوّرة، حتّى من أولئك الذين كانوا تحت سيطرة تعاليم أمير المؤمنين عليه السلام بشكل مباشر، والذين كانوا على درايةٍ بالإسلام بشكل أساسيّ، ناهيك عن سائر بلاد المسلمين التي كانت تحت سيطرة الحكومة والهيمنة الفكريّة للعصابة الأمويّة، فإنَّهم وعلى أثر دعاية مساعدي معاوية - والأكثر من ذلك، نتيجةَ خُلقه وطبعه المخادع - اعتبروه شخصيّةً لائقةً ومحترمةً، وصاحبَ لقب «**خال المؤمنين**»[1]، وقد كنّوا له المكانة والمحبّة الكبيرتين.

وطبعاً، هذا النحو من سلوك معاوية مع الزعماء والنافذين والطبقات القادرة على إخضاع أجساد الناس وقلوبهم وعقولهم مقابل شخصيّةٍ مثل معاوية؛ حيث كان يُبرز لهم محبّةً لا متناهية،

طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ؛ لِيَعْتَبِرَ بِهَا. فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ؛ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ؛ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ؟! أَتَئِنُّ مِنَ الْأَذَى وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظَى؟! ...».

(1) كانت «أمّ حبيبة» أخت معاوية زوجةً للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأمّاً للمؤمنين، ولهذا لا بدّ وأن يكون خالهم!! وبحسب هذا القياس: يجب أن يُعرف أبو سفيان بـ «جدّ المؤمنين»! وهند آكلة الأكباد بـ «جدّة المؤمنين»!!.

ويبذل لهم العطاءات دون حساب، ويعطيهم الصلاحيّات الكثيرة، ويترك أيديهم مبسوطةً للتطاول على الناس الأبرياء، كان له الأثر الأكبر في حصول هذا الوضع.

وهـؤلاء، لكي يـردّوا الجميل المناسب لوليّ نعمتهم، ولكي يحافظوا على الوضع القائم، فيحفظوا امتيازاتهم ومصالحهم الخاصّة، أطلقوا ألسنتهم في مدح معاوية والثناء عليه، وكانوا يقلبون أيّ عيبٍ فيه أو أيّ عيبٍ يستسيغه إلى حُسنٍ ومهارةٍ في عيون الناس.

كانت هذه صورةٌ لمستقبل العالم الإسلاميّ من خلال عدسة عصر الرسالة النبويّة.

الآن، ما هو تكليفُ الناس في مقابل مثل هذا الوضع والنظام الآتي الفاسد وغير الفعّال؟

تتمّةُ الحديث[1] هي إجابةٌ عن هذا السؤال، وفي هذه الإجابة يتمّ الحصول على الإجابة الصحيحة حول معنى الصّبر:

«**فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ**»: أي أنَّ من يواجه وضعاً على النحو الذي تمّ تصويره، سواء في الأزمنة القريبة أم البعيدة.

«**فَصَبَرَ عَلَى الْفَقْرِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْغِنَى**»: أي صبر على الفقر والعوز، وقاوم دوافع تكديس الثروة وتحصيل الرفاهيّة، في حين يمكنه التصرّف كسائر الذين يقفون موقف المتفرّج خلال أحداث

(1) أي الحديث محلّ البحث، وهو الحديث المرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله. راجع: «الكافي»، للشيخ الكلينيّ رحمه الله، ج2، ص 91، باب الصّبر، ح12.

ووقائع زمانهم العاديّة، ويستفيد من الأساليب الشائعة والرائجة؛ ليحصّل الغنى الماليّ لنفسه. أي أنّه يمكنه أن يمهّد لنفسه الطريق لحياة مرفّهةٍ، وأن يحقّق رغباته وأهواءه بقبول الموبقات، وارتكاب الجنايات، والخضوع للذلّة والعبوديّة، وتكبيل القيم الأصيلة والفضائل، وإدارة الظهر والإعراض عن العقائد والمُثل.

الحديثُ يعني: أن يتخلّى عن الثروة والمكانة والغنى الذي يحصل عليه مقابل المشاركة في إفقار الآلاف من الناس الآخرين، وأن يصرف نظره عن الطعام الدسم والطريّ واللذيذ الذي يحصل عليه مقابل قبول جوع عددٍ لا يحصى من الآخرين الذين لا يجدون غذاءً يسدّون به رمقهم.

«**وَصَبَرَ عَلَى الْبِغْضَةِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْمَحَبَّةِ**»: أي تحلّى بالصّبر على الوحدة والاسم والسمعة السيّئين، وقاوم في مواجهة دوافع البحث عن الشهرة وكسب مودّة الآخرين والمقبوليّة والمحبوبيّة.

فهو، وإن كان يستطيع أن يُطلق لسانَهُ بالمديح والتملّق والكذب وخداع العوامّ؛ لجلب أنظار جموع الجهلة أو القادة المغرضين، وأن يغلق شفتيه عن قول الحقّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لم يفعل ذلك، وهو يعلم أنَّهُ بهذه الطريقة من أداء تكليفه ومسؤوليّته الإلهيّة والإنسانيّة سيُسقط نفسَهُ من الأعين، وسيجعلها منفورةً بنظر أصحاب القدرة والسلطة، وسيجعل سمعته وماءَ وجهه عرضةً لتطاول أبواقهم الدعائيّة.

«**وَصَبَرَ عَلَى الذُّلِّ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْعِزِّ**»: يعني أن يصبر على الكون في المراتب الاجتماعيّة الأدنى، وعلى الحرمان من المقامات العالية،

والمناصب ذات الجاه والمال، وألّا يستفيد من قدرته على نيل اللقب والعنوان والمقام الذي ينبغي أن يلوّث نفسه بعدّة جنايات وأفعال مشينة في سبيل تحصيله.

«**آتَاهُ اللهُ ثَوَابَ خَمْسِينَ صِدِّيقاً مِمَّنْ صَدَّقَ بِي**»: أي أنَّ الأجر والثواب والنتيجة التي ينبغي أن تُعطى لخمسين مؤمناً وصالحاً في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله، سيعطيها اللهُ تعالى لمثل هذا الشخص.

وهذا الحديث السماويّ الصادر عن قلبٍ ملكوتيّ، والذي يصل في قيمته ومكانته حدّ قيمة الوحي الإلهيّ[1]، بالإضافة إلى أنَّهُ درسٌ مهمٌّ وعميقٌ جدّاً في مجال إحدى أهمّ المسائل الاجتماعيّة، فإنَّهُ يستعرض معنى وقيمة هذا الفرع من الصّبر (**الصّبر عن المعصية**) أيضاً.

3. الصّبر في مواجهة الحوادث الشديدة (الصّبرُ عند المصيبة)

لا تنفكّ حياة الإنسان عن الكون في معرض الأحداث والبلايا المؤسفة، ولا مفرّ من هذا الأمر؛ فتركيبة الجنس البشريّ فرضت مثل هذا الوضع عليه، وجعلت البلاء والمصيبة حدثاً دائماً وعامّاً في حياته.

وهذه العبارة المعروفة والمنسوبة لمولى المتّقين عليه السلام وهي قوله عن «الدنيا» أنَّها: «**دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَة**...»[2]، أي أنَّها دار محاطة بالامتحانات والبلاءات، ناظرةٌ إلى هذه الحقيقة.

(1) إشارة إلى الآيات (2-5) من سورة «النجم» المباركة، وهي قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

(2) راجع: «نهج البلاغة»، للشريف الرضيّ رحمه الله، الخطبة: 226، ص: 348، من خطبةٍ له عليه السلام في التنفير من الدنيا.

فالأمراض، والأضرار الجسمانيّة، والخسائر الماليّة، وفقدان الأعزّة، والحرمان، وما إلى ذلك، أشكالٌ متنوّعة من هذا الواقع البشريّ غير القابل للاجتناب، حتّى أنَّ أكثر الناس المتنعّمين لا يبقون بمنأىً عن حوادث من هذا القبيل أيضاً.

في هذه الحوادث - والتي تجري في حياة الإنسان بشكل قهريّ ودون ميله وإرادته طبعاً - تبرز ردّات أفعال الناس على أنحاء. فالبعضُ يفقد مقاومته في مواجهة المصيبة، ويعاني من هزيمةٍ روحيّة، والبعض الآخر، يتحمّل أعباءها، ويخرج حين وقوعها سالماً ومرفوع الرأس؛ وذلك من خلال التوجّه والالتفات إلى السير الطبيعيّ لمجريات هذا العالم.

وبحسب قول الشاعر «**رودكي**»، يمكن اختبار فضل وعظمة وسموّ الإنسان حين البلاء والمصيبة[1].

أمَّا النحيب والعويل والجزع - والتي هي من أساليب الضعفاء وأصحاب القلوب الضعيفة - فهي انفعالات قهريّة وطبيعيّة، وتكليفٌ يفرضه هيجانُ العاطفة الجامحة على الإنسان، فيستخدم كُلَّ عضوٍ من الأعضاء بصورةٍ مناسبة، بحيث يجعل العيون تبكي، ويفتح اللسان على الشكوى، والحنجرة على الصراخ، ويحمل اليدين والرأس والقدمين على القيام بحركات وأفعال خاصّة[2].

مركز ترجمة ونشر آثار الإمام الخامنئي
غير مخصص للبيع أو الطباعة

---

(1) اندر بلای سخت پدید
آید فضل و بزرگمردی و سالاری
(رودکی، قصائد و قطعات، ش117)

(2) كضرب الرأس، وصفع الوجه، وصفق اليدين ببعضهما، والضرب باليد على الرِجل، ولطم الصدر كما هو معروفٌ لدى البعض عند وقوع المصائب. (**المُترجم**).

والصّبر في مواجهة المصائب يعني عدم الاستسلام في مقابل هذه الموجة العاطفيّة.

والإنسانُ الصّبور، الذي لم يفقد متانته الروحيّة وشخصيّته الإنسانيّة في مواجهة مصائب من هذا القبيل، لا يتشنّج ولا يفقد اتّزانه أمام الحادثة، ولا تجعله المصيبة ذابلاً مكتئباً كسلاً، ولا تكبّل رجله عن الحركة والسعي نحو هدف حياته الرئيسيّ والجدّيّ.

وهذا الصّبر من أنواع الصّبر المحبّذة، وكما رأينا في الحديث هو: «**حَسَنٌ جَمِيلٌ**»[1].

ولو تقرّر أن يفقد الإنسانُ السالكُ لطريق الوصول نحو الهدف ونحو جهةٍ ما، بعد تعرّضه لكلِّ حادثةٍ مؤلمةٍ، جزءاً من نشاطه وحيويّته الروحيّة، فلا يمكن أبداً توقّع أن يحافظ على رأس ماله وذخيرته الروحيّة اللازمة لطيّ هذا الطريق.

إنّ مقاومة الدوافع التي تجعل الإنسان يفقد الصّبر في مواجهة هذه المصائب، عاملٌ يحفظ فيه ذلك النشاط والحيويّة الروحيّة، ويمنع من ذهابها هدراً. وأكثر من هذا، هذه المقاومة بحدّ ذاتها تمرينٌ صعب وقيّم لتقوية قوى الإرادة والعزيمة الصلبة لدى الإنسان، وهي الشيءُ الذي لو فُقد فإنَّهُ لن يكون طيُّ المسير الصعب الذي كلّف الجميع بطيّه أمراً متاحاً عمليّاً بأيّ شكلٍ من الأشكال.

لذلك، للصّبر على المصائب التي تأتي للإنسان قهراً ومن دون اختياره، فائدتان مهمّتان جدّاً:

(1) راجع: «الكافي»، للشيخ الكلينيّ رَحِمَهُ اللهُ، ج2، ص 90، باب الصّبر، ح11.

فهو أوّلاً: يحفظ لديه ذخيرة النشاط والحيويّة الروحيّة التي هي أساس جميع نشاطاته الإبداعيّة، ويمنع من تدميرها وذهابها هدراً.

وثانياً: يقوّي فيه الإرادة الإنسانيّة، وهي عاملُ تحرّكه ووسيلةُ حركته، ويمنحه القوّة للمقاومة في مواجهة المصائب الاختياريّة والتي سوف نتحدّث عنها.

إنّ التشجيع والحثّ العجيب الصادر عن أولياء الدين عليهم السلام على الصّبر في هذه الموارد؛ بلحاظ دوره البنّاء والمُدهش هذا.

ويمكن مشاهدة علامة على هذه الفلسفة العميقة في هاتين الروايتين:

الرواية الأولى:

«عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَوْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: مَنْ لا يُعِدَّ الصَّبْرَ لِنَوَائِبِ الدَّهْرِ يَعْجِزْ»[1].

الرواية الثانية:

«عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ لَيَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللهِ الدَّرَجَةُ لَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلِهِ، فَيَبْتَلِيهِ اللهُ فِي جَسَدِهِ، أَوْ يُصَابُ بِمَالِهِ، أَوْ يُصَابُ فِي وُلْدِهِ، فَإِنْ هُوَ صَبَرَ بَلَّغَهُ اللهُ إِيَّاهَا»[2].

في هذه الرواية يتّضح تماماً دور الصّبر البنّاء والباعث على السموّ والرفعة.

(1) راجع: «الكافي»، للشيخ الكلينيّ رحمه الله، ج2، ص 93، باب الصّبر، ح24.

(2) راجع: «بحار الأنوار»، للعلاّمة المجلسيّ رحمه الله، ج68، ص94، باب 62، الصّبر واليُسر بعد العسر، ح50.

كان «**عثمان بن مظعون**» من مسلمي صدر الإسلام الأوائل، وأحد المهاجرين إلى الحبشة والمدينة المنوّرة، وقد فقد ابنه الشابّ فيها، فكان وَقْعُ هذه المصيبة عليه ثقيلاً لدرجة أنّه قرّر على إثرها ملازمة المنزل لبقيّة عمره، والتفرّغ للعبادة، والتوقّف عن مزاولة الأنشطة الاجتماعيّة. كان الاكتئاب الذي سبّبته هذه المصيبة عظيماً لدرجة أنّه رجّح ألّا يرى مظاهر الحياة مرّة أخرى.

أتاه الرسول الأكرم ﷺ ونهاه عن هذا العمل، وقال له: «**لَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ**»[1]. في الإسلام، لا محلّ للانزواء وترك الدنيا وصرف العمر بالعبادات الفرديّة؛ «**إِنَّمَا رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الْجِهَادُ**»[2].

لذلك، فإنّ الصّبر على المصائب القهريّة غير الاختياريّة، يعني: تحمّل عبء المصيبة، وعدم فقدان نشاط وحيويّة الحياة، وتناسي الصدمة الناشئة من حادثة مؤلمة، من خلال الاستمرار في أنشطة الحياة الأساسيّة والأصليّة.

(1) راجع: «دعائم الإسلام» للقاضي النعمان المغربيّ، ج2، ص193. وأيضاً: «مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل»، للميرزا النوريّ رحمه الله، ج14، ص155، باب 62، ، ح16356.

(2) في «الأمالي» للشيخ الصدوق رحمه الله عن أنس بن مالك قال: «**تُوُفِّيَ ابْنٌ لِعُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ رضي الله عنه فَاشْتَدَّ حُزْنُهُ عَلَيْهِ حَتَّى اتَّخَذَ مِنْ دَارِهِ مَسْجِداً، يَتَعَبَّدُ فِيهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: يَا عُثْمَانُ! إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَمْ يَكْتُبْ عَلَيْنَا الرَّهْبَانِيَّةَ، إِنَّمَا رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. يَا عُثْمَانَ بْن مَظْعُونٍ! لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، وَلِلنَّارِ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، أَفَمَا يَسُرُّكَ أَنْ لَا تَأْتِيَ بَاباً مِنْهَا إِلَّا وَجَدْتَ ابْنَكَ إِلَى جَنْبِكَ آخِذاً بِحُجْزَتِكَ يَشْفَعُ لَكَ إِلَى رَبِّكَ؟ قَالَ: بَلَى. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَلَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي فَرَطِنَا مَا لِعُثْمَانَ؟ قَالَ: نَعَمْ لِمَنْ صَبَرَ مِنْكُمْ وَاحْتَسَبَ...**». راجع: «الأمالي» للشيخ الصدوق رحمه الله، المجلس السادس عشر، ص66. وأيضاً: «بحار الأنوار»، للعلّامة المجلسيّ رحمه الله، ج67، ص114-115، باب 51، النهي عن الرهبانيّة والسياحة وسائر ما يأمر به أهل البدع والأهواء، ح1.

الصّبر عند المصائب الاختياريّة

لكن الأهمّ من هذا النوع، هو أن يسلك إنسانٌ صاحب هدفٍ، بإدراكٍ ووعيٍ، طريقاً نحو هدف نبيلٍ مهمّ، فينطلق في مواجهة المصائب والمِحن الموجودة في هذا الطريق بشكلٍ حقيقيّ وقطعيّ، متحلّياً بالصّبر والاستقامة، ودون أن يتخلّى عن تقدّمه بسبب مواجهة صعوبات ومضايقات وشدائد هذا المسير، بل يُكمل ويستمرّ في طريقه.

وفي عمليّة تحليلٍ عميق، وفي ضوء مقاربة تحقيقيّة لحالة المجتمعات التاريخيّة، فإنّ الأهداف الإنسانيّة السامية، وعلى رأسها أهداف الأنبياء الإلهيّين عليهم السلام كانت دائماً عرضةً للمعارضة والمخالفة من قبل الطبقات الظالمة والقمعيّة والنفعيّة؛ وذلك إثر الاحتكاك والتصادم مع منافعها. ولهذا السبب كانت هناك مواجهات وصراعات دائمة بين أصحاب هذه الأهداف والمنادين بها، وبين قادة ورؤوس الطبقات السالفة الذّكر. وتوجد في القرآن الكريم آيات متعدّدة تذكر وقوف المُترفين والملأ والطواغيت في مواجهة الأنبياء عليهم السلام وهي آياتٌ ناظرةٌ إلى هذه الحقيقة العلميّة[1].

(1) يقول الإمام الخامنئيّ دام ظله في المحاضرة التاسعة عشرة من محاضرات كتاب «مشروع الفكر الإسلاميّ في القرآن»، حين حديثه عن الجبهة المعارضة للأنبياء عليهم السلام: «حين يأتي النبيّ إلى المجتمع الجاهليّ؛ ليدعو إلى مجتمع جديد بالخصائص المذكورة، من الطبيعيّ أن يقف أمامه من يعتاشون على التمييز الطبقيّ والذين يرون أنفسهم في طبقة عليا والآخرين في طبقة أدنى. يخشون أن يجعلهم الدين الإلهيّ متساوين مع سائر أفراد المجتمع، يجعل الأشراف في مستوى العبيد لا فرق بين السيّد والمسود. هذه فئةٌ من المعارضين. والفئة الأخرى: هي التي تكدّس الثروات وتمتصّ دماء الآخرين وتحتكر التجارة وسائر النشاطات الاقتصاديّة وتأكل الربا. وثمّة مجموعة أخرى ستعارض وهي: فئة الحكّام المستبدّين؛ لأنّ «**لا إله إلّا الله**» سوف تجعل

هذا الموقف الحتميّ الذي لا مفرّ منه، يستلزم دائماً توقّع كلّ

«**الله**» على رأس هرم المجتمع لا «فرعون» و«هامان»، ولا «نمرود» و«شدّاد»، ولا «معاوية» وغيرهم من القوى المستبدّة في التاريخ. وهذه فئة أخرى من المعارضين. والفئة الأخرى من المعارضين هم: الأحبار والرهبان. هؤلاء الذين يتعاملون مع الأفكار ويلقّنون الناس التعاليم التي تحفظ مكانتهم، إذ لو كانت أفكار الناس وتعاليمهم صحيحة وواعية لما استطاع هؤلاء الرهبان والأحبار أن يحافظوا على مكانتهم وقيادتهم الروحيّة وما يتبعها من مكاسب ماديّة». راجع: «مشروع الفكر الإسلاميّ في القرآن»، القسم الثالث، النبوّة، المحاضرة التاسعة عشرة، الجبهة المعارضة، ص: 210 - 211. ويقول ﷺ في تفسيره للآيتين 34 - 35 من سورة «**براءة**» المباركة: «ثمّة فئات اجتماعيّة تكرّر ذكرها في مواضع عدّة من القران الكريم ... وهذه الفئات التي تكرّر ذكرها في القرآن هي التي غالباً ما تشكّل مثلّث السلطة في أيّ مجتمع من المجتمعات. وهذه الفئات هي التي تنهض لمعارضة دعوة الأنبياء كلّما ظهر نبيٌّ يحمل رسالةَ الله إلى عباده. وتتضامن هذه الفئات وتترابط مصالحها؛ ولهذا وصفناها بأنّها مثلّث السلطة والقوّة في المجتمعات الإنسانيّة. **الفئة الأولى**: وهم الذين يسمّيهم القرآن الكريم بـ «**الملأ**»، وهم الحاشية التي تحيط بالحكّام. وهم الذين يشكّلون الأعمدة التي يستند إليها رأس هرم السلطة، مثل: «فرعون» و«نمرود»، فـ «**الملأ**» بحسب المصطلح القرآنيّ، هم المحيطون بهذا الرأس والذين يحاصرونه، ويحافظون على وجوده وقوّته، وهو يستفيد من أفكارهم ووجودهم في حفظ سلطته وشوكته. «هامان» واحدٌ من رموز هذه الفئة في التاريخ السابق على ظهور الإسلام، والآية التي تقول: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ تشير إليه. وقد تكرّرت شخصيّة «هامان» في التاريخ الإسلاميّ مرّات عدّة، حيث كان «معاوية» محاطاً بعدد من الشخصيّات المشابهة، مثل: «عمرو بن العاص»، و«المغيرة بن شعبة»، و«زياد بن أبيه». وإذا نظرتم في سيرة «معاوية» وتاريخه، فسوف تكتشفون أنّ خصائص شخصيّة «هامان» تنطبق على هؤلاء المشار إليهم وأمثالهم، وقد استند «معاوية» في بناء سلطته عليهم واستفاد من أفكارهم ومشورتهم. **الفئة الثانية**: التي تشكّل الضلع الثاني لهذا المثلّث هم الأغنياء والمترفون. وأعضاء هذه الفئة الاجتماعيّة على الرغم من أنّهم قد يكونون خارج دائرة الحاشية المذكورة أعلاه؛ ولكن بينهم وبين حاشية السلطان مصالح متبادلة ومنافعُ مشتركة. ومن هنا، نجد أنّ السلطان يستفيد منهم ويستخدمهم وهم يفعلون الشيء نفسه. ومن نماذج هؤلاء قبل الإسلام «قارون»، ذلك الشخص الذي يجسّد في القرآن رمز الغنى الفاحش. وفي التاريخ الإسلاميّ ظهر مثل هؤلاء في عهد «عثمان» وفي عهد بني أميّة؛ حيث تشكّلت طبقة من الأغنياء والمُلّاك وأكلة الربا. وسرّ حاجة هذه الفئة الاجتماعيّة إلى رأس السلطة، أنّها تستفيد من سلطته وحمايته لتجميع الثروات التي تريد جمعها والاحتفاظ بها. والسلطة بدورها تستفيد من أموال هذه الطبقة عند الحاجة إليها على شكل ضرائب أو غير ذلك. ومن هنا، يظهر أنّ بين الفئتين مصالح متبادلة،

أنواع المصائب والمضايقات لمن يسلكون طريق الحقّ والمنادين

وكلٌّ من الفئتين تخدم الأخرى وتساعدها على سدّ احتياجاتها. والكلمة التي تشير إلى هذه الفئة أي فئة الأغنياء هي «**المترفون**». **والفئة الثالثة**: أو الضلع الثالث من أضلاع المثلّث الذي تحدّث عنه، هم أولئك الذين يبرّرون للفئتين السابقتين أعمالهم، ويضفون الشرعيّة على سلوكهم بين الناس. مثلاً: يريد «معاوية» أن يسنّ قانوناً يبيح سبّ أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر، أو يريد «يزيد» خوض الحرب في مواجهة الإمام الحسين عليه السلام، فهما يحتاجان إلى من يبرّر لهما فعلهما ويقنع عامّة الناس بمشروعيّة هذا السلوك وصحّته. فيأتي «شريح القاضي» مثلاً ويفتي بأنّ الإمام الحسين عليه السلام نقض أصلاً من الأصول الدينيّة المُسلَّمة، فقد ورد أنّه هو الذي أفتى بأنّ حركة الإمام عليه السلام هي حركة خروج على الإمام العادل «يزيد»، وهو يستحقّ القتل بحدّ الحرابة، بحكم قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾. والأمر عينه حصل من قَبْلُ في ما يرتبط بأمير المؤمنين عليه السلام. وكذلك إذا استدعت حاجة أحد أضلاع هذا المثلّث الإغارة والاعتداء على أموال الناس، فلا يمكن الاستغناء عن مثل «أبي يوسف القاضي»، ليفتي لـ «هارون الرشيد» بجواز مصادرة الأموال وسدّ الحاجة بها. وإذا اشتهى «هارون الرشيد» أمةَ أحد المارّة وأراد الحصول عليها، وكان صاحب الأمَةِ قد نذر أن لا يبيعها، ولم يُرد مخالفة نذره أو حنث يمينه أو عهده، فهذا الأمر يدخل ضمن دائرة اختصاص «أبي يوسف» وصلاحيّاته، ليفتي للرجل بأنَّ نذره ليس مشروعاً، وأنَّ أمر الخليفة لا بدّ من أن يُطاع. وهذا شكلٌ آخر من أشكال تقديم الدعم للسلطة، يقع على عاتق «أبي يوسف» وأمثاله، ومن هنا نلاحظ أنَّ خطّ «أبي يوسف» في القضاء كان هو المعتمد على امتداد الجغرافيا الإسلاميّة في الدولة العبّاسيّة. وهذه الفئة الاجتماعيّة الثالثة هي التي يُرمز إليها في القرآن ببعض الأحبار والرهبان أو كثيرٍ منهم. وقد تكرّرت الإشارة في القرآن إلى هذه الفئة أو الطبقة الاجتماعيّة، كما أُشيرَ إلى الفئتين السابقتين. وعندما تكتمل أضلاع هذا المثلّث يقبع الطاغوت على رأس الهرم. وعلى الرغم من أنّ جميع الأضلاع، أي جميع هذه الفئات ينطبق عليها مفهوم «الطاغوت»، فإنَّ الطاغوت الأكبر هو رأس السلطة، والفئتان الأخريان مستخدمتان لمصلحته. ومن المهمّ أن نعلم أنَّ طبع من يُعبّر عنهم القرآن بـ «المَلَإ» هو الوقوف في مواجهة الأنبياء على الدوام ومعارضتهم، أي لا يُمكن لهذه الفئة بعد أن تحوّلت إلى «مَلَإ» إلّا الوقوف في وجه حركة الأنبياء. ومن هنا، فإنّنا نلاحظ في القرآن أنَّ كلمة «الملأ» تقترن بالتآمر على الأنبياء عليهم السلام. ومثال ذلك تكرّر الإشارة إلى ملأ «فرعون» في مواجهة حركة النبيّ موسى عليه السلام، كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾... راجع: «تفسير سورة براءة» للإمام الخامنئيّ دام ظله، تفسير الآيتين: 34 - 35، الصفحات: 235 إلى 238.

بالعدالة والحقيقة وأتباع طريق الأنبياء عليهم السلام والمتمسّكين بنهجهم.

ومن أجل جعل المؤمنين مستعدّين لمواجهة المشاكل مسبقاً، يحذّرهم القرآنُ الكريم صراحةً ومكرّراً من مخاطر هذا الطريق، ويضعهم في أجواء هذه الحقيقة التاريخيّة المجرّبة.

يقول تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[1].

في الواقع، لقد عانى أولئك الذين أرادوا أن يعيشوا كمؤمنين وكعباد لله تعالى، وأن يلتزموا بوظائفهم وتكاليفهم والتزاماتهم الإلهيّة، من جميع أنواع المضايقات والإزعاجات من قِبَل مخالفيهم، ووجدوا أنّ نبوءة القرآن قد تحقّقت في حقّهم بشكلٍ عينيّ.

وبالطّبع، أيضاً كلّما ارتفعت مرتبة ومكانة إيمان وعمل الشّخص الذي يكون ديناميكيّاً وسلساً في طريق هذا الهدف، وكلّما زاد تأثيره وأهمّيّته، زادت الضربات والصدمات التي تلحق به شدّةً، وصار تحمّلها أصعب[2].

وقد صرّح الإمام جعفر الصادق عليه السلام بهذا الأمر في حديثٍ، حيث يقول:

(1) سورة «آل عمران» المباركة، الآية: (186).

(2) الحديث حول «البلاء» وأسبابه والموقف منه وغيرها من الأمور، بالاستفادة من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، موضوعُ بحثٍ مفيدٍ جدّاً وأساسيّ، نتعرّض له في بحثٍ آخر من هذه السلسلة.(*)

(*) إشارة إلى الخطابات التي أُلقيت في تلك الليالي من عامي 1351 هـ ش و 1352 هـ ش، الموافقين لـ 1973م و 1974م، في «**مسجد الكرامة**» أو «**مسجد الإمام الحسن** عليه السلام» في «**مشهد المقدّسة**». ولم تُتح ظروف النضال حينها إمكانيّة نشر هذه الخطابات. (**الناشر**)

«**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ**»[1].

كثيرٌ من هذه الحوادث ليست مثل الحوادث المؤسفة من النوع الأوّل[2] التي لا يمكن لأيّ شخص تجنّبها على أيّ تقدير وبأيّ شكلٍ من الأشكال. وإنَّما يمكن للجميع إذا ما فضّلوا ورجّحوا أن يعيشوا حياةً مريحةً وهنيئةً، أن يحموا أنفسهم من أضرارها.

الأمرُ الذي يجعل هذه البلاءات والحوادث حتميّة وغير قابلة للاجتناب هو التحرّك نحو الهدف.

كما أنَّ أيَّ إنسان طالب للعافية، جليس الدار، يفضّل عدم الخروج من وكره ومنزله أبداً، وعدم تحمّل معاناة السّفر، وتجاهل جميع المنافع والفوائد التي تتأتّى من السير والسفر، يستطيع أن يبقى طوال عمره مصوناً من حوادث مثل السقوط من أعلى الجبل، ومواجهة الحيوانات المفترسة، والتهديد من قبل قطّاع الطرق، ومئات الحوادث الأخرى التي قد تحدث أثناء السفر خاصّةً.

كذلك فإنَّ أيّ شخص غير مبالٍ، ولا يمتلك حسّ المسؤوليّة، ولم يعرف هدفاً لحياته، ولا يخطو خطوةً على طريق ذلك الهدف، ويفضّل حياةً من دون حوادث ومنغّصات، ويعمل بفتوى الشّاعر «**سعديّ**» التي تقول ما تعريبُهُ:

(1) راجع: «الكافي»، للشيخ الكلينيّ رَحِمَهُ اللهُ، ج2، ص252، باب شدّة ابتلاء المؤمن، ح1.

(2) أي ليست مثل المصائب القهريّة غير الإراديّة.

فــي الــبــحــرّ دُرٌّ لــيــس يُــحــصــى نــفــعُــهُ

أمّـــا الــســلامــةُ فــهــي عــنــد الــســاحــل[1]

فإنَّهُ بالطّبع يمكنه أن يُبعد نفسه عن جميع المتاعب والأضرار والمنغّصات والحوادث الملازمة لاتّباع طريق الأنبياء عليهم السلام.

لذلك، بهذا المعنى، فإنّ حوادث وبلاءات طريق الأنبياء عليهم السلام هي بلاءات ومصائب اختياريّة، ولا يُبتلى بها إلّا من يتّبع أمرَ أمير المؤمنين عليه السلام القائل: «**وَخُضِ الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ**»[2]، وهم الذين ساروا على طريق الحقّ، واستجابوا لنداء الأنبياء الإلهيّين عليهم السلام بشكلٍ صحيح وتامّ.

والصّبر في مقابل هذه الأحداث، من أهمّ أنواع الصّبر، وعلامةٌ على انسجام واستقامة جوهر الإنسان. وهو يعني تقبّل المصيبة. وبهذه الصورة يقاوم الإنسانُ في مواجهة كلِّ الدوافع التي تجعله يرجع من منتصف الطريق، ولا يستسلم لمثل هذا النوع من المصائب، ويقاوم، ولا يندم على تعرّضه لمثل هذه البليّة.

خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ[3]، وهو من المسلمين المضحّين، ومن أوائل

(1) راجع: «روضة الورد»، ترجمة: «گلستان» للشاعر: سعديّ الشيرازيّ، الباب الأوّل في سيرة الملوك، القصّة (16)، ص66.

(2) راجع: «نهج البلاغة»، للشريف الرضيّ رحمه الله، من وصيّته عليه السلام للحسن بن عليّ عليهما السلام كتبها إليه بـ «حاضرين» عند انصرافه إلى «صفّين»، ص:393.

(3) **خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ**: كان من العبيد الذين لبّوا نداء النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تعرّض إلى الكثير من التّعذيب بسبب ذلك، إلّا أنَّهُ بقي إلى جانب النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. كما كان حاضراً إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام في حروب «صفّين» و«النّهروان»، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام بشأنه بعد وفاته: «**يَرْحَمُ اللَّهُ خَبَّابَ بْنَ الْأَرَتِّ فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً وَهَاجَرَ طَائِعاً وقَنِعَ بِالْكَفَافِ وَرَضِيَ عَنِ اللَّهِ**

الذين آمنوا بالدعوة الإسلاميّة والذين قبلوا النهضة، وقد حُرم بسبب إيمانه من جزءٍ مهمٍّ من ثروته. اشتكى ذات يوم للنبيّ الأكرم ﷺ من الضغط الشديد الذي كان يقع عليه. هو نفسُهُ يقول: «**أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً شَدِيدَةً. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَ لَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟! فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ فَقَالَ: إِنْ كَانَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ أَحَدُهُمْ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ ﷻ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ**»[1].

بمثل هذا النوع من الكلام المؤجّج، عزّز النبيّ ﷺ في أتباعه روح المقاومة الفولاذيّة الصلبة، وحملهم وحثّهم على الصّبر والاستقامة في مواجهة البلاءات الناشئة بسبب إيمانهم.

من الممكن أن يصير المرءُ في عداد المؤمنين بالدّين، ومن السائرين في طريق توصل في نهايتها إلى الله ﷻ؛ نتيجة الصّبر على أداء الواجبات الإسلاميّة، أي: «**الصّبر على الطاعة**»، أو نتيجة الصّبر في مواجهة دوافع المعصية، أي: «**الصّبر عن المعصية**». لكنَّهُ قد لا تكون له القدرة على مقاومة مصائب وحوادث هذا الطريق الحتميّة

وَعَاشَ مُجَاهِداً». راجع: «نهج البلاغة»، للشريف الرضيّ عليه السلام، الحكمة: 43، من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، ص: 476.

(1) راجع: «بحار الأنوار»، للعلاّمة المجلسيّ رحمه الله، ج18، ص210، الباب الأوّل، المبعث وإظهار الدعوة وما لقي النبيّ ﷺ من القوم، وما جرى بينه وبينهم ... وأحوال كثير من أصحابه وأهل زمانه، ح38.

وغير القابلة للاجتناب، ويُعاني أثناء سلوكه من الضعف الروحيّ، والوهن في العقيدة، واليأس، ومن موجبات أخرى للتوقّف، فيترك الطريق في منتصفه، ويرجع عنه، ويتخلّى عن قسم من الوظائف والتكاليف الملقاة على كاهله؛ بسبب نفاد صبره.

لذا، فإنّ الوصول إلى النهاية والاستمرار في هذا الطريق، متوقّفٌ على توفير هذا الفرع من الصّبر، أي: «**الصّبر عند المصائب الاختياريّة**».

طُرقُ تحصيل هذا الفرع من الصّبر

وبسبب هذه الأهمّيّة وهذا الدور الأساسيّ، كان التأكيد الكبير والمتكرّر على هذه النقطة في العديد من آيات القرآن الكريم، وبطرق وعبارات مختلفة تؤدّي إلى إيجاد بواعث المقاومة لدى الإنسان.

إحدى طرق إيجاد الصّبر عند المصائب الاختياريّة: هي طرح وعرض هذه المصائب والنظر فيها. ففي القرآن الكريم، حتّى لا تصعب مواجهةُ الموت في سبيل أداء الواجب على سالكي سبيل الله ﷻ، فإنّه يذكّرهم أنّ الموت مصير كلّ البشر، فأولئك الذين لا يموتون في ميادين القتال، سيموتون في نهاية المطاف على الفراش وفي البيوت، وأنّ الموت والحياة بيد الله ﷻ، والموت الذي يكون لله ﷻ وعملاً في سبيله - موجبٌ للأجر والثواب[1].

(1) يقول ﷻ في سورة «**آل عمران**» المباركة: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾. الآية: (145). ويقول ﷻ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا

طريقةٌ أخرى: هي أن نستذكر التقدّم الذي يتمّ إحرازه بقبول هذه المصائب التي تقع في الطريق إلى الهدف، وكذلك الأضرار التي تحدث بسبب موانعه وعوائقه. وقد تمّ استخدام هذه الطريقة في الآيتين (139 - 140) من سورة «آل عمران المباركة، وفي آيات أخرى من آيات القرآن الكريم.

يقول ﷻ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ ...﴾[1].

طريقةٌ ثالثةٌ: هي الاستذكار والتباهي بأحوال السابقين ومجاهداتهم وصبرهم وللقبول [والرضا] الذي أبرزوه وأظهروه في مواجهة المصائب الاختياريّة.

والآية (146) من سورة «آل عمران» المباركة، تُعلّم أنصار النبيّ ﷺ وطليعة المسلمين، الصّبر والاستقامة بهذا البيان: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

وتتحدّث العديد من الآيات القرآنيّة الأخرى أيضاً عن هذه الحقائق، وتحثّ وتشوّق على اتّباع طريق الأنبياء عليهم السلام وعلى سلوكه والسير فيه.

يَجۡمَعُونَ﴾. الآية: (157). وأيضاً: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾. الآيتان: (168-169).

(1) سورة «آل عمران» المباركة، الآيتان: (139 - 140).

(2) سورة «آل عمران» المباركة، الآية: (146).

أحياناً، الصّبر عند مثل هذه المصائب، ومع كونه صعباً للغاية، ويتطلّب إرادةً قويّة وإيماناً راسخاً، إلّا أنَّ له دوراً إعجازيّاً في إيجاد الإرادة القويّة والإيمان الراسخ، والأهمّ من ذلك، في خلق جنّة الإسلام الاجتماعيّة. ولهذا السبب تمّ الحثّ والتوصية في آيات القرآن الكريم وفي روايات لا تحصى من كلمات أئمّة الهدى عليهم السلام، وبشتّى الطرق والأساليب، بهذا النوع وهذا الفرع من الصّبر.

وفي هذا البحث حيث الاعتماد فيه على الروايات بنحوٍ أكبر، نكتفي في هذا المجال بذكر روايةٍ واحدةٍ، تشتملُ على الحديث عن الصّبر في مواجهة أيّ نوعٍ من أنواع المصائب:

«عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: إِنَّ الْحُرَّ حُرٌّ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، إِنْ نَابَتْهُ نَائِبَةٌ صَبَرَ لَهَا، وَإِنْ تَدَاكَّتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ، لَمْ تَكْسِرْهُ؛ وَإِنْ أُسِرَ وَقُهِرَ، وَاسْتُبْدِلَ بِالْيُسْرِ عُسْراً، كَمَا كَانَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ الْأَمِينُ - صلوات الله عليه - لَمْ يَضُرْرْ حُرِّيَّتَهُ أَنِ اسْتُعْبِدَ وَقُهِرَ وَأُسِرَ، وَلَمْ تَضُرْرْهُ ظُلْمَةُ الْجُبِّ وَوَحْشَتُهُ، وَمَا نَالَهُ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ الْجَبَّارَ الْعَاتِيَ لَهُ عَبْداً بَعْدَ إِذْ كَانَ لَهُ مَالِكاً، فَأَرْسَلَهُ وَرَحِمَ بِهِ أُمَّةً، وَكَذَلِكَ الصَّبْرُ يُعْقِبُ خَيْراً، فَاصْبِرُوا وَوَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الصَّبْرِ تُؤْجَرُوا»[1].

(1) راجع: «الكافي»، للشيخ الكلينيّ رحمه الله، ج2، ص 89، باب الصّبر، ح6.

آثار وفوائد الصّبر

في الجزء الأخير من مطالب هذا البحث، من الضروريّ ذكر فوائد الصّبر وآثاره البنّاءة. هذا، على الرغم من وجود بعض الإشارات إلى هذا الأمر في طيّات الكلام السابق. ولكن، للاطّلاع على الآثار الفرديّة والاجتماعيّة للصّبر، من الضروريّ بحث هذه المسألة بشيء من التوسعة.

ممّا يُقال هنا: إنّ الفوائد الأخرويّة للصّبر هي تلك المكافأة التي سينالها الإنسانُ الصّابر في مرحلةٍ أخرى من الحياة، وهي مرحلة الآخرة والقيامة. وليس هذا ما سنبحثه. وطبعاً، لا تنبغي الغفلة أيضاً عن أنَّ تلك المكافآت لا تنفكّ عن بعض فوائد ومكافآت الصّبر الدنيويّة. وإنَّما سينصبّ البحثُ فعلاً على الآثار التي سينالها الإنسانُ الصّابر، أو المجتمعُ الصّابر، أو الجماعةُ الصّابرة، في ظلّ الصّبر والاستقامة، والتي ستتحقّق لهم نقداً في هذه المرحلة من الحياة، والتي هي مرحلة الدنيا.

من أين يجب أن نبدأ البحث؟ ومن أيٍّ من فوائد الصّبر التي لا حصر لها نبدأُ العدَّ؟

بجملةٍ واحدة وكلام واحد يمكن القول: إنَّ كلَّ شيءٍ، سواء الدنيا أم الآخرة، وسواء المُثل البشريّة العليا أم المقاصد الخسيسة الباعثة على الشرّ، وباختصار: أيّ مقصدٍ يريده الإنسان، مرهونٌ بالصّبر والثبات.

وإذا كان لا بدّ من الاستدلال على هذا الموضوع أيضاً، ولم تبدُ تجاربُ البشرّ طوال تاريخ حياتهم الممتدّ مقنعةً، فإنَّ هذه المعادلة قطعيّةٌ وواضحةٌ بما فيه الكفاية، وهي: أنَّ الوصول إلى أيّ هدفٍ

يحتاج إلى حركةٍ، والحركة تستلزم وتتطلّب الصّبر والاستقامة. وقد اختبر كُلُّ إنسانٍ صحّة هذه المعادلة في عدّةٍ من الأحداث على الأقلّ خلال مدّة حياته.

أ) الثبات والانتصار:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى كلماته المُلهمة للحكمة:

«**لَا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ وَإِنْ طَالَ بِهِ الزَّمَان**»[1].

وفي حديث آخر، عبّر عليه السلام عن نفس هذا المضمون بهذا التعبير:

«**مَنْ رَكِبَ مَرْكَبَ الصَّبْرِ اهْتَدَى إِلَى مَيْدَانِ النَّصْر**»[2].

وأيضاً، في خطبةٍ محفّزةٍ ألقاها عليه السلام خلال معركة «**صفّين**»؛ لتشجيع وتعبئة أنصاره، قال:

«**وَاسْتَعِينُوا بِالصِّدْقِ وَالصَّبْرِ، فَإِنَّ بَعْدَ الصَّبْرِ يَنْزِلُ عَلَيكُمُ النَّصْرُ**»[3].

(1) راجع: «نهج البلاغة»، للشريف الرضيّ رحمه الله، الحكمة: 153، ص: 499.

(2) راجع: «بحار الأنوار»، للعلاّمة المجلسيّ رحمه الله، ج68، ص96، باب 62، الصّبر واليُسر بعد العسر.

(3) راجع: «الكامل في التاريخ»، لابن الأثير، ج3، ص298، ذِكْرُ تتمّة أمر «صفّين».

[جوابٌ عن شبهةٍ]

هل حقّاً أنَّ الصّبر والثبات يستوجبان أن ينال الإنسان هدفه؟ وإذا ما كانت هذه القاعدةُ قاعدةً عامّة وقانوناً دائميّاً لا يقبل التخلّف، لماذا نرى على مرّ التاريخ أفراداً وجماعات لم يحقّقوا مبتغياتهم ولم ينالوا أهدافهم ولم يذوقوا طعم الانتصار رغم أنّهم ثبتوا وقاوموا في ميادين الشرف؟

وتوجد في صدر الإسلام أحداثٌ مثل واقعة عاشوراء، وقيام زيد بن عليّ عليه السلام والتوّابين وغيرها، وكذلك في أزمنةٍ أخرى، توجد وقائع ليست بالقليلة مشابهة لتلك، [شاهدةٌ على هذا الأمر].

الجوابُ عن هذا السؤال - وطبعاً هو سؤالٌ مطروحٌ عند الكثير من الناس - سوف يتّضح من خلال القليل من الدقّة.

بنظرنا، إنَّ من يعتبر هذه الشواهد التاريخيّة - أي الأحداث التي تبدو في ظاهرها أنَّها أخفقت وباءت بالفشل، مثل: عاشوراء، وقتل زيد، وغيرها من الأحداث ... - ناقضة لذلك القانون العامّ - أي: قانون الصّبر والظَّفَر - ، لم يُدرك بشكلٍ صحيح الهدفَ والمقصودَ الذي كانت تشتمل عليه كُلُّ واحدةٍ من هذه الحوادث، والذي يُعتبر الوصول إليه انتصاراً ونجاحاً.

الآن نسأل: ماذا كان الهدف من وراء هذه الوقائع والأحداث التاريخيّة؟

إذا تمّت الإجابةُ عن هذا السؤال بشكل صحيح، ستتضح النتيجة وهي أنَّ [أصحاب هذه الوقائع والأحداث] لم يُخفقوا ولم يفشلوا في جهودهم بأيِّ شكلٍ من الأشكال.

نقول مقدّمةً: ينبغي أن نذكر أنَّ الأهداف تختلف من حيث كونها بعيدة أم قريبة التحقّق؛ فبعضها يمكن تحقيقه في وقت قصير، والبعض الآخر لا يمكن تحقيقه إلّا على المديات الطويلة: فغرس الشتلة، والعناية والاهتمام بها، وتوفير سائر موجبات الإثمار، هي كلّها مقدّمات لازمة لأجل الحصول على ثمرة هذه الشتلة.

إذا ما توفّرت هذه المقدّمات، ولم يكن هناك تقصيرٌ في تهيئتها ومحاربة عوامل عدم التلقيح والإثمار والفساد، فإنَّها بالتأكيد ستؤتي ثمارها، لكن لا يوجد وقتٌ معيّن وموحّد في جميع الموارد أو الأماكن. ففي بعض الأحيان يتمّ الحصول على الفاكهة المطلوبة في فترة سنة واحدة مثلاً، ولكن، أحياناً يكون نوع الشجرة والفاكهة المطلوبة، والوضع الطبيعيّ بحيث لا يمكن توقّع وانتظار الفاكهة قبل عشر سنوات.

ويقيناً، المقصود النهائيّ من تربية الشتول التي ستكون مثمرةً بعد عشر سنوات، هو الحصول على الفاكهة المرغوبة منها، ولكن الهدف من الجهد الذي يتمّ بذلُهُ في كلّ سنةٍ من هذه السنوات، هو تقريب الشتلة خطوةً واحدة نحو الإثمار. وعندما يمرّ عامٌ على البستانيّ دون تراخٍ وكسل، يمكنُهُ أن يشعر بالرضا والاطمئنان من أنّ جهوده التي استمرّت لسنةٍ قد أتت أُكُلها، وأنّ شتلته اقتربت من الإثمار سنةً ومرحلةً. وإذا ما رأى أحدهم - من قريبٍ أو من بعيد - جهود البستانيّ الكادح والصّبور لمدّة سنةٍ، وبعد نهاية السنة الأولى

لم ير الثمار على أغصان الشجرة، فأقدم من منطلق اليأس وعدم الثقة على تخطئة ما جاء من قول الشّاعر في القصيدة الشعريّة المعروفة حين قال ما تعريبه: «**على أثر الصّبر، سيأتي دور النّصر**»[1]. وحكم بتجربته الناقصة على هذا البستانيّ، سيعتبره الجميعُ قصيرَ النّظر وقليلَ الصّبر، وسيذكّرونه بأنَّهُ لا ينبغي أن يُتوقّع لجهود سنةٍ واحدةٍ أن تُعطي نتيجةَ عشر سنين من المجهود والسعي.

لقد وصلت حركة عاشوراء، وكلّ الأحداث التي كانت في امتداد ذلك الخطّ والاتّجاه - دون استثناء - إلى الهدف والنتيجة التي كانت من الممكن أن تترتّب على مثل هذه الحادثة[2]. كلّ واحدةٍ من هذه الأحداث كانت خطوةً ناجحةً وموفّقةً نحو «تدمير القوى غير الإسلاميّة وتشكيل المجتمع الإسلاميّ المثاليّ». ومن دون أدنى

(1) يقول الشّاعر المتصوّف حافظ الشيرازيّ في الغزل (232) من ديوان أشعاره:

صبر و ظفر، هر دو دوستان قديمند
بر اثرِ صبر، نوبتِ ظفر آيد

وتعريبه:

الصّبر والظَّفر كلاهما صديقان قديمان
وعلى أثر الصّبر، سيأتي دور النّصر

(2) البحث حول هدف «نهضة عاشوراء»، بحثٌ مستقلٌّ موكولٌ إلى خطاب آخر من هذه السلسلة.(*)

(*) إشارة إلى الخطابات التي أُلقيت في تلك الليالي من عامي 1351 هـ ش و 1352 هـ ش، الموافقين لـ 1973م و 1974م، في «**مسجد الكرامة**» في «**مشهد المقدّسة**». ولم تُتح ظروف النضال حينها إمكانيّة نشر هذه الخطابات. وقد نُشرت خطابات القائد المعظّم دام ظله حول تحليل النهضة الحسينيّة بهمّة مؤسّسة الثورة الإسلاميّة للثقافة والأبحاث، في كتاب تحت عنوان: «**دو امام مجاهد**»، والذي عُرّب ونُشر من قبل المؤسّسة نفسها، تحت عنوان: «**الحسنان عليهما السلام إمامان مُجاهدان**». (**الناشر**)

شكّ، بعد هذه الخطوات الأولى، لو كان للاحقين همّةٌ، واتّخذوا الخطوات التالية أيضاً، فإنّ النتيجة النهائية كانت ستتحقّق. لكنّ توقّع هذه النتيجة - والتي هي نتيجة مجموع جهود وأنشطة عدّة أجيال أو عدّة فترات - من خلال جهد أفراد، أو جهد بعض أفراد نسلٍ ما، هو توقّع في غير محلّه، وينمّ عن هرطقةٍ وجهل. ففي المثال المتقدّم، يمكن أن يقال لذلك المشاهد المفتقر للصّبر والخبرة: إنَّ أولئك الذين أدركوا متاعب الزراعة، وخبروا هذا العمل، يعرفون جيّداً أنّ عمل كلِّ يومٍ وكلِّ ساعةٍ سيؤتي ثماره ونتيجته قبل انقضاء ذلك اليوم وتلك الساعة، وأنَّهم حصلوا على نتيجة صبرهم عن كُلِّ لحظةٍ صبروها، بعد انقضاء تلك اللحظة مباشرةً. إنَّ سنتين من جهود هذا البستانيّ ستجعل هذه الشجرة أقرب سنتين إلى الإثمار. وإذا لم يتمّ بذل هذا الجهد، فسيتأخّر الحصول على ثمار هذه الشجرة لما بعد عامين. ولعلّه سيضيع وقتُ إثمارها من الأساس. فهل الحقيقة غير هذا الذي ذكرناه؟

مُضافاً إلى هذه الحقيقة، هناك حقيقةٌ أخرى، وهي أنَّهُ لو برز عائقٌ ومانعٌ يمنع البستانيَّ الحريصَ من مواصلة عمله، ولم يأتِ بستانيٌّ آخر لمتابعة عمله، ولم يؤدِّ أعمال السنة الثالثة والرابعة والسنوات اللاحقة، فإنّ هذه الشجرة لن تورق ولن تُثمر أبداً.

إنَّ حِملاً يفترضُ أن يُنقل لعشر خطوات، وأن يصل إلى مقصدٍ بعد عشر خطوات، فإنَّهُ بعد أن يُنقل لخطوتين، يكون قد اقترب مرحلتين من الهدف النهائيّ. وإذا قدر الشخص الأوّل على اتّخاذ بقيّة الخطوات بنفسه، أو قام خليفتُهُ بهذا الأمر عنه من بعده، فسيصل هذا الحِمْلُ إلى المقصد. وإذا لم تتمّ متابعة هذه المهمّة بواسطة

الشخص الأوّل أو الشخص الذي يليه من بعده، فبالطّبع لن يتحقّق الهدف النهائيّ، إلّا أنَّ الهدف القريب - والذي كان نتيجةً للصّبر في الخطوتين الأوليين - قد تحقّق بالتأكيد، ولا شكّ في هذا الأمر.

ومن المؤكّد أنّ اقتلاع أو قطع شجرةٍ متجذّرة، أو إزالة صخرةٍ ضخمة، ليس أمراً ممكناً من دون وجود معدّات، وحفّارةٍ، ومنشار، وذراع قويّ. وأيضاً، لو توفّر كلُّ هذا من دون الصّبر، فإنَّهُ لن يجلب حتّى القليل من الفائدة. فلو أنجزت أوّل ذراع قويّة وصبورة الاستعدادات اللازمة، ثمّ توقّف صاحبها عن الحركة بسبب مانعٍ ما، فالآخرون الذين من المفترض أن يرفعوا هذه الصّخرة من بعده، سيكونون أقرب خطوةً ومرحلةً إلى التوفيق والنجاح.

فزيد بن عليّ عليه السلام بلغ بثورته - التي وعلى الرغم من بروز إشارات الانتصار أخفقت بسبب حادثةٍ حدثت[1] - إلى النتيجة التي كان من الممكن توقّعها من هذه الخطوة الأولى.

ولقد كانت ثورتُهُ واستشهاده ضربة مطرقةٍ كبيرةٍ على الصخرة الصلبة للحكومة الأمويّة، صخرة كانت تحتاج من أجل كسرها وتفتيتها إلى عدّة ضربات متتالية، وعندما أُتبعت هذه الضربة بالضربات اللاحقة، انهارت تلك الصخرة السوداء التي كانت تُثقل كاهل أمّة المسلمين وقد أعجزتهم.

(1) رُمي زيد عليه السلام بسهمٍ فأصاب جانب جبهته اليسرى، فنزل السهم في الدماغ... فجاؤوا بطبيب فقال له: «إنّك إن نزعته من رأسك مُتَّ». فقال: «الموت أيسر عليّ ممّا أنا فيه»، فانتزعه فساعة انتزاعه مات - صلوات الله عليه - راجع: «مقاتل الطالبيّين»، لأبي الفرج الأصفهانيّ، ص96، مقتل زيد بن عليّ والسبب فيه.

ويقيناً، لولا الضربة الأولى، لما آلت الضربات اللاحقة إلى تلك النتيجة، أو لما كانت لتحدث مثل هذه الضربات أصلاً.

ولعلّ إلى هذه الحقيقة يُشير الحديثُ الذي عدّ شهادة الحسين بن عليّ عليه السلام سبباً لسقوط الحكم السفيانيّ، وشهادة زيد بن عليّ عليه السلام سبباً لسقوط الحكم المروانيّ[1].

ب) الآثار الفرديّة والنفسيّة للصّبر:

بالإضافة إلى الأثر الاجتماعيّ البنّاء للصّبر، وهو الانتصار والوصول إلى المقصد والمقصود والهدف، فإنّ لهذه الصفة آثاراً إيجابيّة ومهمّة جدّاً على روحيّة ونفسيّة الإنسان الصّابر.

وبالاطّلاع على هذه الآثار الإعجازيّة، تُصبح العديد من تضحيات التاريخ، وخاصّةً التضحيات المذهلة لمجاهدي كربلاء - أي أصحاب وشباب أهل بيت الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام الذين تكون ذكراهم الكريمة في هذه الليالي أكثر جلاءً من أيّ وقتٍ آخر[2] - قابلةً للفهم والإدراك.

---

(1) في هذه العجالة، لا يستحضرني متن ومصدر ذلك الحديث، فليراجع المهتمّون الجزأين (11 - 12) من النسخة القديمة من كتاب «بحار الأنوار». **(منه رحمه الله)**

عن إمامنا الصادق عليه السلام قال: «**إِنَّ آلَ أَبِي سُفْيَانَ قَتَلُوا الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَنَزَعَ اللَّهُ مُلْكَهُمْ، وَقَتَلَ هِشَامٌ زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ، فَنَزَعَ اللَّهُ مُلْكَهُ، وَقَتَلَ الْوَلِيدُ يَحْيَى بْنَ زَيْدٍ فَنَزَعَ اللَّهُ مُلْكَهُ**».

راجع: «بحار الأنوار»، للعلّامة المجلسيّ رحمه الله، ج45، الباب46، ح10، ص309، ما عجّل الله به قتلة الحسين عليه السلام من العذاب في الدنيا وما ظهر من إعجازه واستجابة دعائه في ذلك عند الحرب وبعده. **(الناشر)**

(2) أُلقيت هذه المحاضرة في أجواء شهر محرّم الحرام لعام 1394 هـ/ق، الموافق لسنة 1974 ميلاديّة.

والمقصود من الآثار النفسيّة هو تلك الآثار التي يتركها الصّبر على نفسيّة الشخص الصّابر، والذي تصل نتيجتُهُ الشخصيّة إليه، قبل أن تعود عليه نتيجةٌ خارجيّة وعينيّة من المقاومة.

ا. بروز روحيّة رفض الهزيمة

أوَّلُ أثر إيجابيّ وبنّاءً للصّبر هو أنّه يصنعُ إنساناً صابراً في مواجهة الضربات، إنساناً لا يقبل الهزيمة، وكما التمارين الرياضيّة الصعبة، يجعله إنساناً مقاوماً وقويّاً.

إنّ المقدّمة الضروريّة للنجاح في أيّ هدفٍ ورغبة - سواء في المجالات المادّيّة أم المجالات الفكريّة والعمليّة والدينيّة - هي ظهور مثل هذه الحالة في الإنسان.

وإنَّ كلَّ الانكسارات والهزائم التي تحدث في ميادين النضال الاجتماعيّة والدينيّة والعمليّة، تكون مقدّمتها هزيمةٌ روحيّةٌ. والضربة التي توجّهها الروحيّة الضعيفة وتقبّل الهزيمة لاستمرار النضال، تكون آثارها مُضاعفةً أضعافاً عدّة عن تلك التي تحصل بسبب نقص المعدّات والمناورات العسكريّة وإخفاقاتها وغيرها من الأمور.

فالجنديّ الذي يدير ظهره للعدوّ في ساحة المعركة، ويستدير ليولّي هارباً، هُزمت روحيّته وقدرتُهُ النفسيّة وأصبح منهزماً روحيّاً قبل أن تُصبح عيناه وذراعاه عاجزتين عن مواجهة العدوّ، وطالما أنَّهُ لم يُهزم هذا الانهزام النفسيّ، فإنَّهُ من المستحيل على الجنديّ أن يدير ظهره للعدوّ، وأن يترك الجبهة.

إنّ السلوك البطوليّ لـ «طارق بن زياد»، القائد المسلم الفاتح لجزءٍ

من إسبانيا (عام 94 هـ)، والذي قام بعد عبور البحر الأبيض المتوسّط والدخول إلى أراضي العدوّ بسحب السفن الحربيّة من البحر وإضرام النيران فيها، لهو مثالٌ على خلق هذه الروح لدى الجنود.

أولى خصوصيّات الصّبر، إيجاد مثل هذه الروحيّة في الشخص الصّابر. والأشخاصُ الذين يفقدون الصّبر والمقاومة في مواجهة أحداث الحياة العاديّة - مثل: الخسائر الماليّة، والأمراض، والرفض والنفور، وحالات الموت والوفاة - يستسلمون للعجز والمسكنة والجزع. وعند الحوادث وظهور الموانع والعوائق في الطريق، سرعان ما ينهزمون، ويولّون هاربين. وعلى العكس من ذلك، فإنّ أولئك الذين يستخدمون الصّبر سلاحاً رابحاً في كلّ واقعةٍ، ويستفيدون من الصّبر والاستقامة في كُلِّ حادثةٍ بنحوٍ مناسب، فإنَّهم يكتسبون المزيد من القوّة والقدرة على مواجهة مشكلات الحياة، ويُصبحون أصحاب روحيّة مقاومة لا تقبل الهزيمة.

يمكن تشبيهُ الشّخص عديم الصّبر بالجنديّ الذي يقاتل في ساحة المعركة أعزلاً، ومن دون درعٍ واقٍ. مثل هذا الشّخص سيتمّ تدميره وسيُقتل من خلال ضربات العدوّ الأولى. ولنقس الإنسان الصّبور بنفس هذا القياس، حيث يمكن اعتباره في حكم محاربٍ مغطّىً من رأسه إلى أخمص قدميه بالدّروع والمعدّات الحربيّة. فمن المؤكّد أنّ الوصول إلى مثل هذا الشخص سيكون أصعب بدرجات، وسيكون التخلّص منه أمراً عسيراً.

الشّخص الذي لا يُهزمُ في معارك الحياة، هو الشّخص الذي أعدّ في نفسه الاستعدادات اللازمة مُسبقاً، ولبس درعاً من الصّبر، وجعل نفسه غير قابلة للانهزام. ومثلُ هذا الشّخص لن يُصبح

بسهولةٍ ضعيفاً وعاجزاً وذليلاً، وعند مواجهة المشكلات والأحداث المؤسفة التي يجب توقّعها في كلّ خطوة على طريق التكامل والسعادة، لن يتجهّم وجهُهُ، ولن يرتجف قلبه، ولن تزلّ قدماه، ولن يسقط في شرك العجز واليأس.

بهذا البيان يمكن للمرء أن يصل بوضوح إلى عمق هذه الثقافة والإلهام الإسلاميّ العميق الذي صدر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام حيث قال:

«قَدْ عَجَزَ مَنْ لَمْ يُعِدَّ لِكُلِّ بَلَاءٍ صَبْراً»[1].

يعني أنّ مواجهة بلايا ومشاكل الحياة، تجعل الشّخص الذي لم يتوقّعها، والذي لم يُوجِد في نفسه روحيّة الإنسان الصّابر المقاوم، شخصاً عاجزاً مكبّل اليدين والرجلين.

والمفهوم المخالف لهذه الجملة هو أنّه إن أوجد المرءُ في نفسه مصدراً للصّبر عند مواجهة الحوادث، فإنَّهُ لن يكون عاجزاً ومهزوماً أبداً.

إنَّ سرَّ ثبات وصمود عظماء التاريخ وصنّاع التاريخ البشريّ، وعلى رأسهم الأنبياء والرجال الإلهيّين عليهم السلام، الذين كثيراً ما تعرّضوا في بداية الدعوة لأذيّة واضطهاد وتعذيب الطواغيت، فكانوا يُصبحون أكثر صموداً وفعاليّةً، يكمن في هذه النقطة بالذات.

إنَّ هؤلاء، ومن خلال توقّع مرارات ومآسي هذا الطريق، وتوفير

(1) راجع: «تحف العقول عن آل الرسول»، لابن شعبة الحرّانيّ رحمه الله، ص304، من وصيّته عليه السلام لعبد الله بن جندب.

مصدر وافر للصّبر، أزالوا إمكانيّة الهزيمة الروحيّة من أنفسهم، وتحوّلوا إلى موجودات صلبة لا تقبل الهزيمة.

لقد كان أعداؤهم وخصومهم، الذين كان لديهم في كثيرٍ من الحالات جميع أنواع الإمكانات، يتعبون ويعجزون، أمَّا هؤلاء الرجال العظماء، الذين حُرموا من كلّ تلك الإمكانات، فقد استمرّوا في العمل والجهد بجدٍّ ودون كلل أو ملل.

لقد كان المتوكّل العبّاسيّ - ذلك الأمبراطور العبّاسيّ المقتدر - يقول: «**وَيْحَكُمْ! قَدْ أَعْيَانِي أَمْرُ ابْنِ الرِّضَا**»[1]! فكيف يمكن لشخصٍ مثل الإمام الهادي عليه السلام الذي قضى معظم أيّام إمامته تحت الضغط الناشئ من سلطة المتوكّل، أن يُتعب هذا الحاكم المُقتدر؟[2].

(1) كان المتوكّل العبّاسيّ يقول: «وَيْحَكُمْ! قَدْ أَعْيَانِي أَمْرُ ابْنِ الرِّضَا. أَبى أَنْ يَشْرَبَ مَعِي، أَوْ يُنَادِمَنِي، أَوْ أَجِدَ مِنْهُ فُرْصَةً فِي هذَا». راجع: «الكافي»، للشيخ الكلينيّ رحمه الله، ج1، ص502، ح8، باب مولد أبي الحسن عليّ بن محمّد عليهما السلام والرضوان.

* عُرف الأئمّة الثلاثة بعد الإمام الثامن إلى الإمام الحادي عشر عليهم السلام، وكذلك بعض أفراد هذه الأسرة النبويّة الشريفة الآخرين، بلقب «**ابن الرضا**». والمقصود في الرواية السابقة المنقولة عن المتوكّل العبّاسيّ هو: الإمام عليّ الهادي عليه السلام.

(2) البحث والحديث حول شخصيّة الإمام الهادي عليه السلام، وجهاده، والمشكلات التي واجهته، وأساليبه في النضال، ووضع القوّة الحاكمة المعاصرة له، موكولٌ إلى خطاب آخر من هذه السلسلة*. **نقطةٌ أخرى يُمكن ملاحظتها في هذا الحديث هي**: مسألة توقّع المخاطر في جميع الأعمال الكبيرة. وغالباً ما يكون أولئك الذين بدأوا أعمالاً خطيرة دون الالتفات إلى المخاطر المحتملة، لا يملكون القدرة على التعامل مع الخطر، ونتيجة لذلك: يعانون من اليأس والندم والعجز، بعد ظهور وبروز علائمه.

* إشارة إلى الخطابات التي أُلقيت في تلك الليالي من عامي 1351 هـ ش و 1352 هـ ش، الموافقين لـ 1973م و 1974م، في «**مسجد الكرامة**» أو «**مسجد الإمام الحسن** عليه السلام» في «**مشهد المقدّسة**». ولم تُتح ظروف النضال حينها إمكانيّة نشر هذه الخطابات. (**الناشر**)

عندما يكون أحدُ الخصمين المتعارضين ضعيفاً بلحاظ الإمكانات المادّيّة، لكن دون أن يُعجزَهُ السجنُ والحرمانُ والبعدُ عن المحيط الهادئ والآمن، ودون أن تتعبه الضغوطات والصعوبات، ويواصل مسيرته طويلة الأمد رغم وجود كلّ الموانع والعقبات الموضوعة في طريق هدفه، من الطبيعيّ أن يجعل خصمه الذي يتمتّع بالإمكانات المادّيّة والمحروم من القوّة الروحيّة ومن الإيمان بطريقه وهدفه، عاجزاً وتعباً.

وبالتأكيد، لا يُمكن لعديم الصّبر السالك في طريقٍ أن يُتعب خصمَهُ في الوقت نفسه الذي لم يُتعب فيه نَفْسَه، فإنَّهُ سيفشل ويهزم دون أدنى شكّ.

هذه هي الخصوصيّة العجيبة للصّبر والتي تجعل الإنسان غير قابل للهزيمة والانكسار.

2. بروز الخصال الحسنة الكامنة

غالباً ما لا يستطيع الناسُ تقييم أنفسهم قبل الاختبار، وهم غير مدركين للعديد من القوى الكامنة في وجودهم.

خذ على سبيل المثال، رجلاً قويّاً يتمتّع بقوّة بدنيّة كبيرة بشكل طبيعيّ ودون رياضةٍ وتمرين وتدريب، وافترض أنّه لم يسبق له أن قام بأيّ نشاطٍ مُطلقاً، ولم يحمل حِمْلاً ثقيلاً قطّ، ولم يُجر أيّ اختبارٍ للقوّة، فإنَّ مثل هذا الشّخص بالتأكيد لن يكون مطّلعاً على مستوى طاقته البدنيّة، ويمكنه أن يكتشف قوّته التي وهبه اللهُ ﷻ إيّاها، فقط في الميدان الذي يحتاج فيه إلى استخدام تلك القوّة.

فالأثر الثاني المهمّ للصّبر هو أنَّهُ يجعل الإنسانَ الصّابر المقاوم

في قبال الأحداث والعقبات في شتّى مجالات الحياة، يطّلع على مستوى قوّته وخصوصيّاته وخصاله الحسنة والمهمّة الكامنة في وجوده، والتي لم يتعامل معها في حياته العاديّة والهنيئة أبداً.

وهذه المسألة يُدركها ويفهمها جيّداً أولئك الذين تذوّقوا ضغوط الحياة وشدائدها، وسلّموا أنفسهم للبلاءات والمحن في طريق الأهداف والمُثُل الشريفة؛ فمثلُ هؤلاء الأشخاص حتماً يواجهون الأخطار الكبيرة والظُلامات والضغوط. وفي اللحظات التي يعتقد فيها شخصٌ مراقبٌ غريبٌ وغيرُ مطّلعٍ [على أحوالهم] أنّهم هزموا ودمّروا، تجدهم على أثر الصّبر والمقاومة، قد شعروا بالانتصارات والفتوحات في أنفسهم، ورأوا فيها قدرةً غير مسبوقة وعظمةً مدهشةً، واكتشفوا في وجودهم أمراً جهلوه ولم يعرفوه من قبل أبداً.

فالصّبر إذن يستوجبُ أن يعرف الإنسان نفسه أكثر، ويدرك النقاط الإيجابيّة في وجوده أكثر، ويكتشف القوى التي لم يجدها في نفسه طوال عمره وحياته.

3. التوجّه والاعتماد على الله ﷻ أكثر

ثالث خصوصيّة بنّاءة للصّبر هي أنّه يجعل الإنسان أقرب إلى الله ﷻ، وأكثر اعتماداً عليه في كلّ مرحلةٍ يكون فيها وحيداً.

يعتقد البعضُ أنّ الاعتماد والاتّكال على الله ﷻ لا ينسجم مع الاعتماد على الذات، وأنَّ من يعتمد على الله ﷻ، لا يمكنه الاعتماد على نفسه. وعندما يقال: اعتمدوا على الله ﷻ! يُطلق مثلُ هؤلاء ألسنتهم للاعتراض أن: دعوا الناس يعتمدون على أنفسهم، ويعلّقون آمالهم عليها! وكأنَّ الذي يدعو الناس إلى الاعتماد على الله ﷻ، يريد

منهم ويقول لهم ألّا يعتمدوا على أنفسهم! والحالُ أنَّ الإنسان المعتقد بالله ﷻ يرى تلازماً بين وجود الاعتماد على النفس والاعتماد على الله ﷻ. حتّى أنَّهُ ومن خلال هذا الاعتبار يرى أنَّ الاعتماد على النفس بُعدٌ من أبعاد الصّبر، وأنَّهُ في الواقع وسيلةٌ موجبةٌ للاعتماد والاتّكال على الله ﷻ أيضاً؛ لأنّ نفاد الصّبر في مواجهة أحداث الحياة المريرة، والدهشة والخوف من مواجهة المصائب الاختياريّة، والذي هو علامةٌ على عدم الاعتماد على النفس، يوجب الابتعاد والنسيان لله ﷻ أيضاً.

وعندما يواجه الإنسانُ شدائد ومصائب الدّهر، وتُطبق عليه صخرةُ محن الحياة وامتحاناتها، وتضغط عليه بشدّة، فإنَّهُ إن لم يعجز وينفد صبره، ولم يجزع وينتحب وينوح، ستنفتح أمامه نوافذ ارتباطه بالله ﷻ بشكلٍ أوسع، ويصير أكثر حرّيّة، ويصبح قلبه وروحه مُشرقاً وأكثر إشراقاً بنور حضور الله ﷻ. وعلى العكس من ذلك، فإنّ إظهار الضعف والجزع سيجعله غريباً عن الله ﷻ، وبعيداً ومنقطعاً عنه ﷻ أيضاً، وعن نفسه كذلك.

وهذا من جملة الحقائق التي تكون المشاهدةُ والتجربةُ أوضح أدلّتها، وأولئك الذين استخدموا سلاح الصّبر في تلك الحالات يقرّون ويذعنون ويؤمنون بهذا الأمر بوضوح وبشكل قاطع.

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1].

* * *

(1) سورة «البقرة» المباركة، جزءٌ من الآية: (250).